5 شارع أبو الفدا

ذكريات وأحاديث نادرة مع أم كلثوم

فكري صالح

5 شارع أبو الفدا (ذكريات وأحاديث نادرة مع أم كلثوم)
فكري صالح

تدقيق لغوي: آية النزهي
تنسيق وإخراج داخلي: لخضر بن الزهرة
تصميم الغلاف: عبد الرحمن الصواف
رقم الإيداع: 1593 / 2020
الترقيم الدولي: 978/977-6793-04-0
الطبعة الأولى: 2020
رئيس مجلس الإدارة: أ. د. محمود محمد السعيد
المدير العام: هالة البشبيشي

بريد إلكتروني: info@alhalapublishing.com
تليفون : 01110161117
العنوان: 26 ش 261 المعادي الجديدة
صفحة الفيسبوك: مركز الهالة الثقافي
https://www.facebook.com/alhalapublishing

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذنٍ خطيٍّ من الدار.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، و لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار النشر.

5 شارع أبو الفدا

ذكريات وأحاديث نادرة
مع أم كلثوم

فكري صالح

شكر خاص لـ...

(محمد نعمان الهوى)،

و

(منى مصطفى)،

و

(يحيى تميم)

الذين ساعدوني في جمع صفحات هذا الكتاب.

فكري صالح

قصة هذا الكتاب

أسعدني الحظ عندما كنتُ طالبًا في كُلية الهندسة بجامعة عين شمس في الستينيات أن التقيت بكوكب الشرق السيدة أم كلثوم عدة مرات، وتحدثت معها، وحضرت كثيرًا من حفلاتها بمعجزة كما سيتضح خلال سرد هذه الذكريات.

وقد قمنا بعمل دراسة لتحليل صوتها في مادة الصوتيات التي درستها في ذلك الوقت، كما قمتُ بتأسيس جمعية باسمها في الكُلية، ونظمنا العديد من الرحلات والندوات كان معنا فيها الشاعر الكبير الأستاذ أحمد رامي الذي أعتبره من أهم الشخصيات في حياتها الفنية.

وكان يشترك معنا الأستاذة الدكتورة الأديبة نعمات أحمد فؤاد والشاعر صالح جودت والموسيقار محمد عبده صالح (على فكرة ليس لي أي صلة قرابة بأي «صالح» منهم).

جرتْ وقائع هذا الكتاب ما بين عامي (1963 و1969م) وهي سنوات شهدتْ تألقًا واضحًا لأم كلثوم، ومن الأسف أنَّ علاقتي المباشرة بها انقطعت عقب هجرتي إلى كندا في نهاية الستينيات، لكن صوتها لم يهجرني قط عبر كل هذا السنوات، وأعتقد أنه لن يحدث أبدًا.

***

السيدة أم كلثوم والأرملة والشاي على الكورنيش

كانت السيدة أم كلثوم تمشي لمدة ساعة كل يوم، أو كلما سمح وقتها على كورنيش النيل. معظم الوقت كان في ناحية المعادي، وذلك لتقوية التنفس وبالطبع لصوتها وللغناء. السواق كان يوصلها وينتظرها في شارع جانبي كل مره.

ذات يوم سنة 1966 ذهبت إلى منزلها في الزمالك لكي أترك لها مع البواب مجموعة من صور رحلة وندوة لجمعية أم كلثوم بكلية الهندسة جامعة عين شمس حيث كنت طالبًا، وصادف وصولي مع عودتها بالسيارة من هذا المشي، وقبل أن تفتح الظرف الذي فيه الصور بدأت تضحك، ولم أدر لماذا ولكن لم أسألها.

قالت لي: «تعال معايا شوية».

فتحت الظرف وكانت تنظر للصور، ولكن استمرت في الضحك، وقالت لي:

«حقول لك حاجة بس ما تقلهاش لزملائك طول ما أنا عايشة».

وها أنا انتظرت أكثر من أربعين سنة بعد وفاتها لأتحدث عنها.

قالت إنها كانت تجد امرأة مسكينة على الكورنيش تسترزق بعمل الشاي وبيعه للمشاه، فأحضرت أم كلثوم كوبًا معها من منزلها، وكانت تجلس على حصيرة على الرصيف مع هذه المرأة الفقيرة، وتشرب معها الشاي، طبعا من غير ما تقول لها إنها أم كلثوم. وفي هذا

اليوم كانت المرأة تسمع أغنية جديدة لأم كلثوم من راديو تر انزيزتور Transistor، وتجهز الشاي في نفس الوقت.

جلست أم كلثوم تسمع نفسها وتقول أحيانا: «الله، دي حتة مظبوطة»، وأحيانا تنتقد نفسها وتقول: «كان ممكن يكون أحسن»، ثم انفعلت وصوتها ارتفع فزعلت بياعه الشاي، وقالت لها: «اسكتي بقا خلينا نسمع الست أم كلثوم، ده إنتي بعد شوية حتغني ولا إيه. ازاي تقولي ممكن يكون أحسن، مفيش أحسن من أم كلثوم».

بعد وفاة السيدة أم كلثوم بسنة رحت زيارة لمصر وذهبت مع والدي لزيارة قبرها. (على فكرة سلوى حجازي مدفونة في قبر أمام قبرها). وبعد ذلك ذهبت لوحدي لشارع كورنيش النيل في المعادي ومشيت فترة أبحث عن هذه المرأة، ولم يكن عندي أمل كبير.

وشاء القدر أن أجد امرأة عجوزة تبيع شاي وترمس وفول سوداني لكن موجود 3 أو 4 كراسي بجانبها. وصفت لها أم كلثوم بدون ذكر اسمها فقالت لي فعلا، كان فيه سيدة طيبة بهذا الوصف تقعد معاها شوية كل كام يوم، لكن لم ترها لعدة سنين.

وقالت إن هذه السيدة (أم كلثوم) قالت لها إنها فلاحة زيها، وربنا فتح عليها. فقالت لها إنه فيها شبه من أم كلثوم. فردت عليها أم كلثوم: «يخلق من الشبه أربعين، واحنا الفلاحين نشبه بعض، وفينا من روح بعض».

وقالت: «الست دي (أم كلثوم) لما عرفت إني أرملة وعندي خمس أطفال كانت تعطيني بقشيش كبير جدا، كل ما تشرب كباية

شاي، وأصرت إن أولادي يروحوا المدرسة ويتعلموا، ومن الفلوس اللي أعطتني قدرت أجيب عربية للترمس والفول السوداني وكراسي، وأربي أولادي وأصون كرامتي. بس كنت خايفة لأني معرفش الست دي جابت الفلوس منين لكن مكنش باين عليها حاجة وحشة، على كل حال بسبب مساعدتها لي ولأولادي ربنا هيجيب لها الخير ولما تموت حتروح الجنة».

ولم أخبرها أن هذه السيدة الطيبة كانت السيدة أم كلثوم، ولا أدري لماذا لم أخبرها....

أم كلثوم عن قرب

أم فؤاد التي تقف وراء «كوكب الشرق».

ولدتْ في قرية طماي الزهايرة بمحافظة الدقهلية في مصر في 30 ديسمبر 1898م وهو تاريخ ميلادها المذكور في الموسوعة العربية المعروفة بدقتها، و أيضًا طبقًا للحسابات الفلكية لأنها ولدتْ في شهر رمضان في ليلة القدر.

أما التاريخ الآخر الموجود في جواز سفرها وفي بعض المو اقع على الإنترنت فهو غير صحيح.

كان والدها شيخ أو إمام جامع في الليلة التي ولدت فيها، كانت في شهر رمضان وكان في ذلك الوقت والدها نائم في الجامع لفترة قليلة بعد صلاة التراويح، ويُقال أنَّ والدها الشيخ إبراهيم في تلك الليلة التي و افقت 27 من رمضان (ليلة القَدر) رأى في المنام سيدة ترتدي الثياب البيضاء ويشع وجهها نورًا، وأعطته هذه السيدة لفافة خضراء فلما فتحها وجد في داخلها شيئًا يخطف الأبصار.

قالت له هذه جوهرة وبُشرى السعد حافظ عليها، سألها مَن أنتِ؟ قالتْ له أنها أم كلثوم بنت النبي محمد (ﷺ) ثم عاد إلى منزله ووجد أنَّ زوجته أنجبتْ بنتًا فأطلق عليها اسم أم كلثوم.

والبعض يعتقدون أن اسم أم كلثوم الحقيقي هو فاطمة ولكن في الو اقع فاطمة كان اسم والدتها.

كانت تحب أن يناديها بعض أصدقاؤها باسم والدتها حبًا فيها وإكرامًا لذكراها، وكانت تحتفل بعيد ميلاد والدتها السيدة فاطمة كل عام مع أسرتها وأصدقائها.

أم كلثوم إذًا هو اسم بنت سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام من زوجته السيدة خديجة... وكلمة الكلثوم تعني ممتلئ لحم الخدين والوجه من غير قبح، وكذلك تعني الحرير المعلق على رأس العلم، وكما ترون كل معانيه جميلة. وكلمة أم هنا لا تعني الأمومة ولكنها صفة مثل أم شعر طويل أو أم عيون جميلة.

في سنة 1928م وإن كانت بعض المصادر تقول أنه في عام 1931م كانت أم كلثوم في مدينة القدس حين غنت على مسرح (عدن) أمام جمهور غفير من عشاق الطرب والشِعر العربي القديم، كما وصف هذه الزيارة الموسيقار المقدسي (واصف جوهرية) قائلًا:

«إنها كانت ليلة من الأيام التي لا تُنسى».

ومنها مضت أم كلثوم إلى حيفا عبر القطار لتحيي بها ليلتين إحداهما في شارع الملوك وثانيتهما في مسرح الانشراح، ومن هذه الزيارة وهذا الموقع لقبتْ أم كلثوم ب (كوكب الشرق) الذي بقى معها طوال عمرها... وقد أطلقت هذا اللقب على أم كلثوم سيدة فلسطينية من حيفا تُدعى (أم فؤاد) حيث صعدت على المسرح وقالت لها أنت كوكب الشرق وهي تغني أغنية أفديه إن حفظ الهوى وأكد هذا بعض المؤرخين حين قابلوا السيدة أم فؤاد في مخيمات الشتات وتحدثوا معها عن هذه الزيارة التاريخية للسيدة أم كلثوم لحيفا.

لغز الحنجرة الذهبية

صوت أم كلثوم يعتبر كونترالتو دراماتيك «Contr– alto dramatique» في معظم الأغنية ولكنها كانت في أجزاء منها تغني متزوسوبر انو Metzo soprano ثم تطلع إلى سوبر انو.

لم تستطع أي مغنية عالمية أن تفعل ذلك، أي مغنية أوبرا مثلًا تغني في category واحدة فقط كانت حنجرتها تنتج اثنين أكتاف Octaves كل واحد أكتاف Octave معناه مساحة صوتية من 8 درجات نغمية، ويصل عدد ذبذبات صوت أم كلثوم التي سجلتها أجهزة القياس إلى 16000 ذبذبة في الثانية.

وهناك عدة دراسات تمت في هندسة عين شمس وأخرى في جامعات كندية وأوروبية وُجد أنه لا يوجد أي مغنية وصل صوتها لهذا الرقم فأشهر مغنية أوبرا عالمية اسمها ماريا كالاس كان صوتها يصل إلى 9000 ذبذبة ولفترة قليلة.

وقد تم استخدام أجهزة إلكترونية لقياس خصائص الصوت وهي أجهزة تعود لهذا الزمن بالطبع فظهرت قدرة أم كلثوم على التحكم في مساحتها الصوتية الغير عادية وقدرتها على أداء الحركة الموسيقية أي الانتقال من نغمة إلى أخرى بعيدة أو قريبة من النغمة التي تغنيها بدون تردد أو اهتزاز في صوتها.

عندما سافرتْ للعلاج في مستشفى البحرية الأمريكية التي كان يدخلها فقط الملوك والرؤساء طلب منها الباحثين أن تو افق على

إبرام عقد معهم لإعطائهم حق أخذ حنجرتها للبحث والتحليل بعد وفاتها في مقابل 100 مليون دولار –سنة 1948م تقريبا– وبالطبع رفضت.

ومن المعروف أنها كانت تغني بدون ميكرفون في شبابها، وعندما استخدموا ميكرفون صوتها أصاب الميكروفون بالخلل والعطب من قوة صوتها وأصالته، وفي أخر حياتها وكانت في السبعينيات من عمرها كان الميكرفون يُعلق على بُعد مترمنها.

كانت أم كلثوم تنفرد بحنجرة نادرة وغير عادية كما نعلم، فقوة العضلات التي تُحرك أحبالها الصوتية وتشدها حينما تريد وبأي شكل تشاء أمكنها أن تغني أي طبقة من طبقات الغناء.

وكان لدى رئتي أم كلثوم قدرة على الامتلاء بكمية كبيرة من الهواء التي ساعدت على ذبذبة هذه الأحبال الصوتية المشدودة بصورة تجعل صوتها يصل بذبذبات إلى تردد عالي جدًا في الثانية الواحدة بقدرة خارقة للعادة كما ذكرت في الجزء الأول.

كل هذا يؤثر على أُذن المستمعين تأثيرًا جميلًا، وكان السؤال – وربما اللغز– للبعض هو كيف كانت تتحكم في بحة الصوت الرائعة التي نسمعها في بعض أغانيها وكأنها تغني من بطنها كما يقولون؟

هذه البحة تحدث بفراغات الأنف والحنجرة والجيوب الأنفية مما يجعل لذبذبات الأحبال الصوتية هذا الرنين المميز والذي انفردت به السيدة أم كلثوم.

وأذكر أنَّ الصحفي الأستاذ (جليل البنداري) كتب في إحدى مقالاته في الستينيات أنَّ من صفات أم كلثوم المميزة صفة الحضور أو الوجود، هذه المقالة من ضمن أشياء كثيرة تركتها في مصر عندما هاجرت وضاعت مع الزمن.

كانت أخبار أم كلثوم تنشر يوميًا في الجرائد، وذات يوم علمت أنها ستُسجل أغنية في استديو (مصر فون أو كايرو فون) أو ما شابه ذلك في ميدان العتبة أمام مكتب البريد، كان معي نُسخ من صورندوة لجمعية أم كلثوم بهندسة عين شمس أردت أن أعطيها لها كالعادة، وكنتُ قريبًا من هذا المكان، وعندما وصلتُ كانت هي داخل الاستديو.

حجرة الانتظار كانت مزدحمة جدًا رجال صحافة ومصورين وعدد كبير من الرجال والنساء، شباب ومسنين مصريين وغير مصريين منهم الجالسين ومنهم الواقفين.

وفي لحظة لا أنساها عمَّ الصمت ووقف الجميع ونظر فإذا بباب الاستديو فُتح وخرجتْ منه السيدة أم كلثوم، وانشق الجمع كأنما انشق البحر الأحمر في قصة سيدنا موسى لكي تمر فيه أم كلثوم.

كان وجودها في أي مكان بدون أن تتكلم أو تغني كفيل أن يُجبر الحاضرين على احترامها، وحينما تجرأ أحد المصورين أن يقترب منها وأخذ صورة فوقفت وأشارت بإصبع يدها للكاميرا فسلمها لها المصور، فتحتها وأخذت الفيلم وأعطت له الكاميرا، فقد كانت لا تحب أن يصورها أحد عن قرب وكان المصور يرتعش وتهتز يداه بشكلٍ ملحوظ.

كانت في حفلاتها تسيطر بصفة وجودها سيطرة تامة على الجمهور، لا يُقدمها أحد على المسرح، ينفرج السِتار فيستقبلها الجمهور بالتصفيق والهتاف والترحيب لدقائق.

ثم تجلس على كرسيها وتعزف الفرقة المقدمة الموسيقية لأغنية، وفي نهايتها تقف أم كلثوم فيصفق لها الجمهور، ويعتقد المستمعين على الراديو أنَّ التصفيق للمقدمة وذلك ذكاء منها وتقدير للملحن والفرقة، وتبدأ تغني ولا تسمع غير صوتها برغم آلاف الحاضرين في المسرح.

كانت تحرك الجمهور كما تشاء، بنظرة كانت تُسكِت الجميع ونظرة أخرى أو ابتسامه يهيج الجميع فرحًا وتصفيقًا، وبإشارة من يدها كانت تُحرك مشاعرهم، وفي لحظات هادئة من الأغنية تتصور كأنك في معبد.

ويبقى هنا سؤال يتعلق، لماذا لم تستمر السيدة أم كلثوم في الغناء الأوبرالي خصوصًا بعد نجاحها في أوبريت عايدة؟ والإجابة كما فهمتها منها في لقاء لعمل حديث معها لمجلة الكُلية سنة 1966م. أنه من المعروف أن صوتها كان خامة نفيسة للأوبرا لو صُبَّ في هذا القالب منذ صغرها.

الأوبرا فن جماعي مشترك، وهي كانت ستكون فيه جزء من مجموعة، ومغني الأوبرا يخضع لتدريب مضني ولابد أن يحفظ أغاني متعددة في نفس الوقت ويخضع أيضًا للمخرج وهو محكوم بالوقت والمكان والمجموعة الفنية.

لكن سياسة السيدة أم كلثوم التي وضعتها لنفسها ونجحت فيها كانت تقوم على التشويق والإحساس بالذات والفردية، بحيث تتركز الأضواء عليها وحدها وتحيط الهالات بها وحدها، تغني ما تشاء وقتما تشاء وحيثما تشاء وكيفما تشاء، فهي لم تغنِ جملة واحدة مرتين بنفس الطريقة، وكانت تهيمن هيمنة كاملة على المستمعين والفرقة الموسيقية والملحنين؛ ولذلك لم يَرُق لها الاستمرار في مجال الأوبرا.

***

لماذا كانت تجلس علي كرسي في بداية الحفلات؟

الفكرة في جلوسها أثناء المقدمة الموسيقية هو أنَّ الحفلة كانت تُذاع على الهواء على الراديو فالمستمعين لا يرونها.

ينفرج السِتار فيُصفق جمهور الحاضرين استقبالًا وتحيةً لها، ثم تجلس ويسمع العالم العربي من الخليج للمحيط المقدمة الموسيقية، ثم تقف السيدة أم كلثوم فيصفق الحاضرين ويسمع المستمع على الراديو التصفيق فيظن أنه للمقدمة الموسيقية.

بالإضافة إلى ذلك كان الجلوس لبضع دقائق يُعطيها فرصة لتستريح أعصابها في مواجهة جمهورها الذي كانت تحترمه، ولتر اقب الحاضرين فتشعر بالطمأنينة والسعادة لوجود بعض أصدقائها وجوه مألوفة، ثم جاء عصر التليفزيون ولكنها استمرت في عادتها في الجلوس أثناء المقدمة لسببين:

أولًا: رفضت أن تُذاع في التليفزيون على الهواء مباشرة حفلات الإذاعة الخميس الأول من كل شهر ولا الحفلات الخيرية التي كانت تُقيم الكثير منها.

ثانيًا: كانت عادة أرادت الاستمرار فيها.

هذا ما فهمته منها وما قاله لي رئيس فرقتها الموسيقية الأستاذ (محمد عبده صالح).

أما عن علاقتها بجمهور حفلاتها الذي دائمًا ما كان يُقاطعها قائلًا «تاني يا ست»، فقد قالت لي السيدة أم كلثوم ذات مَرة أنها كانت عندما يقاطعها الجمهور بالتصفيق بتكون مشدودة بين إحساسين:

إحساس بالسرور لأنها أرضت المستمعين من ناحية ومن ناحية أخرى الرغبة في الاستمرار في الغناء بدون مقاطعة.

وكان في معظم الأوقات إرضاء جمهورها وإعادة المقطع الذي أعجبهم يكون له الأسبقية فوق رغبتها في الاستمرار.

ومَرة أخرى قالت أنها لا تفكر في نفسها، أنها في القمة، وأنها كانت تسير في الموكب فقط، وأنَّ الأماني والآمال أكبر من العُمر ومهما طال العمر لن يتسع لتحقيقها كلها.

***

أحب أغنيات أم كلثوم لنفسها.

هذه كلمات السيدة أم كلثوم بنفسها:

«الأغنية الناجحة يجب أن تتو افر فيها ثلاثة عناصر (التأليف الجيد والتلحين الجيد والأداء الجيد).

في رأيي الأغنية تعتمد قبل كل شيء على الكلام، إذا كان الكلام جميل انفعل به كل من الملحن والمغني فيكون اللحن جميل والأداء ممتاز، وكلما كان الكلام جميل زادت حلاوة الأغنية.

أنا راضية عن جميع أغانيّ من ناحية التلحين، والذي يُميز أغنية عن أخرى في نظري هو الكلام، ولهذا أنا أحب أغنية (سهران لوحدي) لأن كلامها حلو جدًا وموضوعها طريف جدًا لم يسبق لشاعر أن تحسر على عهد الجفا والحُساد بهذا الجمال قبل هذه الأغنية، كلهم كرهوا عهد الجفا إلَّا رامي».

قبل عصر أم كلثوم بحوالي نصف قرن كان الغناء الفردي يعتمد على الطرب والتكرار وراء المغني، أفراد قليلة تلعب على آلات التخت لمساندة المغني، كان هذا النوع من الغناء على وشك أن ينقرض، لكن أم كلثوم أحيته وأضافت لعمره أكثر من نصف قرن وسماه النقاد الموسيقيون ظاهرة الأغنية الطويلة.

السبب في ذلك هو معجزة صوت أم كلثوم وحلاوته، فكان الجمهور يطلب ويُصر على تكرار كل جزء أو كوبليه من أغانيها في الحفلات عدة مرات.

أضف إلى ذلك أنَّ صوتها يتفق في معادلته الرياضية مع المعادلة الرياضية للسلم الموسيقي الطبيعي، وهي انفردت بهذا دون جميع الأصوات المسجلة للمغنيات في العالم.

هذا هو الإعجاز الصوتي الذي ليس له مثيل، والذي أثبتته الدراسات في هندسة عين شمس، ويتفق مع نتائج دراسات عن صوتها في جامعات أوروبية وأمريكية.

كانت تتحكم في ما تُخرجه من حنجرتها وما تخرجه من أصوات مموجة تحكم تام، صوتًا صافيًا بدون أي تشنجات جنسية أو ما شابه ذلك، لا تكلف فيه ولا صنعة، نفس طويل وصوت مُعبر وقوي.

كانت تنقل معاني كلمات الشاعر وتُجسد أنغام اللحن بحركات يديها وجسمها وتعبيرات الوجه ونبرات الصوت.

بعد وفاتها حاولت بعض المغنيات تقليدها لإضافة عمر جديد للأغنية الطويلة على أمل وراثة جمهور أم كلثوم ولكن مجهوداتهم كانت بدون جدوى؛ لأنَّ فاقد الشيء لا يُعطيه.

وستعيش كل أغنية من أغاني أم كلثوم كسيمفونية كلاسيكية تتمتع بها الأجيال القادمة كما تتمتع الملايين في العالم الآن بالسيمفونيات الكلاسيكية التي ألفها بيتهوفن وتشايكوفسكي وبرامز ورحمانينوف وغيرهم بعد وفاتهم بمئات السنين.

***

سر النظارة السوداء

منذ صغرها عانت أم كلثوم من التهاب في المسالك البولية، ثم أُصيبت بتسمم في الغدة الدرقية سنة 1947م، وبدأت رحلات العلاج سنة 1947م إلى فرنسا و إنجلترا وسويسرا.

سبَّبَ هذا المرض جحوظ (خروج) في عينيها ومن وقتها بدأت تلبس النظارة السوداء.

وبعد ذلك في سنة 1953م دعتها الحكومة الأمريكية للعلاج في المستشفى الخاصة بالبحرية الأمريكية التي كانت مخصصة وقتها لكبار الشخصيات مثل ملوك ورؤساء الدول.

في السنوات الثلاثة الأخيرة من عمرها ازدادت الأمراض ومنها كان ارتفاع شديد في ضغط الدم مسببًا صداع مؤلم، ثم بدأ الفشل والتليف الكلوي، وفي ديسمبر 1974م أُصيبت بفقر شديد في الدم (أنيميا).

بدأتْ صراعها مع الموت يوم 20 يناير 1975م، ودخلتْ في غيبوبة الموت فجر يوم 30 يناير عندما أصابها نزيف في المخ ونُقلت إلى مستشفى المعادي.

خلال هذه الأيام كانت الإذاعات المصرية والعربية ووكالات الأنباء في كل أنحاء العالم تذيع أخبارها الصحية باستمرار.

في كندا هُنا كانت تُذاع كل ربع ساعة، كان القلق على وجوه الملايين من محبيها، كل تذاكر الطائرات المتجهة إلى القاهرة كانت محجوزة.

وفي يوم 3 فبراير انضمت موجات الإذاعات في مصر ووكالات الأنباء في العالم وقطعت برامجها لتُذيع النبأ الحزين «وفاة كوكب الشرق».

ونعاها الحُكام والمحكومين، وبما أن الوفود من البلاد العربية والأوروبية كانت تتوالى على الحضور للمشاركة في توديعها، قررت مصر أن تؤجل الجنازة يومين.

كان الوداع يوم 5 فبراير 1975م مهيبًا لم يحدث في التاريخ مثله على كثرة من رحلوا من ملوك ورؤساء وعلماء وفنانين، صوت من السماء عاد إلى السماء.

وقد اختارت أم كلثوم أن تُدفَن بجوار والدتها فاطمة المليجي والتي ولدت تقريبًا حوالي سنة 1870م وتوفت سنة 1947م.

وقد قالت أم كلثوم في حديث خاص لمجلة الحائط الخاصة بجمعية أم كلثوم بهندسة عين شمس في الستينيات أنَّ أكثر إنسانة أحبتها هي والدتها.

طلبتُ منها أن تذكر بعض ما يدور بذهنها عن تلك السيدة التي أنجبت وربت كوكب الشرق، قالت:

«كانت والدتي سابقة لعصرها أصرت على تعليمي أنا وأختي، وكان أهل القرى في ذلك الوقت لا يفكرون في تعليم البنات، أصرت على تحديد النسل رغم إرادة والدي أن يكون له أولاد وبنات أكثر كما كان الحال في الريف وما زال، كانت على ذكاء خارق وقدرة لفهم الأحداث والشخصيات، كانت قوية الشخصية وقليلة الكلام بعكس معظم نساء الأرياف، كانت عباراتها قصيرة وفي غاية الدقة والوضوح، كانت تحترم نفسها وتحترم الجميع وكان الجميع يحترمها ويُحبها.

كان أطفال القرية يجدون صعوبة في نطق اسمي، كنتُ ألعب معهم و أتقمص شخصية أمي من شدة حبي فيها ولكي أكتسب شيء من الاحترام الذي كان لها من كل أهل القرية.

فكان الأطفال أصدقائي يجدون أنه أسهل عليهم أن يُنادوني باسمها، وكان ذلك يسرني لأقصى حد، كانت طفلة صديقة لي تقول لي أنَّ من المفترض أن يكون اسمي فاطمة ويكون اسم أمي أم كلثوم لأنها أم و أنا مش أم».

سألتها إذا كانت والدتها تحضر حفلاتها قالت:

«لم تحضر الحفلات ولكنها كانت تسمع الاسطوانات قبل افتتاح الإذاعة، ثم كانت تسمع الحفلات بعد افتتاح الإذاعة في الراديو.

كانت تقبلني وتدعو لي قبل الحفلة وتُذَكرني أن أقرأ الآية (رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً من لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي) قبل فتح السِتارة.

وكانت لا تنام قبل عودتي من الحفلة مهما كان الوقت متأخر، وكانت تقدم لي النقد البناء في ما غنيت في الحفلة».

ولاحظتُ الدموع في عينيها ووقفتْ وقالتْ لي:

«انت لازم تروح تذاكر لأن الامتحانات قربت و أنا رايحة أصلي ركعتين لروح والدتي».

***

طقوس حفلة الست

كان الجمهور يصل حوالي الساعة التاسعة، الأناقة كانت من أول الملحوظات، الرجال يرتدون البدل الوجيهة والسيدات بملابس آخر الموضات العالمية وقتها.

كان الاستثناء في الزي لعُمدة اسمه (سعيد الطحان) الذي كان يُلقب بالسَمّيع الأول، كان يرتدي الجبة والقفطان بوجاهة ووقار، لا أذكر اسم القرية التي كان هو عُمدتها. كان يحضر كل حفلاتها وكان مكانه في منتصف الصف الأول بجوار الأستاذ أحمد رامي في معظم الحفلات.

كان من ضمن الجمهور شخصيات كبيرة من المجتمع المصري والدول العربية والأجنبية من أهل الفن والأدب والسياسة وغير ذلك.

كما قال شاعر الشباب الأستاذ أحمد رامي: «الجمهور كان يحتشد لسماعها كأنما يستقبل عيدًا من أعياد الدهر».

حتى الساعة العاشرة والنصف تقريبًا نسمع أصوات آلات موسيقية من وراء السِتارة في نغمات لا نعرفها.

علمتُ بعد ذلك أنَّ الفرقة كانت تستعد وأنَّ أم كلثوم بنفسها كانت تتأكد أن كل الآلات الموسيقية مضبوطة.

وبعد ثلاث دقات وبدون مقدمات ينفرج السِتار وتظهر كوكب الشرق ويقف الجميع كبيرًا وصغيرًا وتضج القاعة بعاصفة من

التصفيق المتواصل لأكثر من عشر دقائق أحيانًا وتسمع هتافات مثل «عظمة على عظمة يا ست» وعبارات أخرى كلها حب وتقدير لها.

ثم تجلس أم كلثوم على كرسي أمام الفرقة بينما تعزف الفرقة المقدمة الموسيقية للأغنية.

أنظر إلى وجهها فأرى بشاشتها إلى استماع النغم وتركيزها، ثم تدب بقدمها دبًا خفيفًا، وعند قرب انتهاء المقدمة تقف أم كلثوم فيصفق الجمهور ويعتقد المستمعون بالراديو أن التصفيق كان للمقدمة، وتغني وتدب بقدمها دبًا خفيفًا ثم تمد رقبتها وترمي بعينيها نظرة سابحة إلى آفاق بعيدة.

وأذكر حينذاك وصف أمير الشعراء أحمد شوقي لها في قصيدته «سلوا كؤوس الطلا» حين قال:

«ألقتْ إلى الليل جيدًا نافرًا ورمتْ إليه أذنًا وحارت فيه عيناها، باتت على الروض تسقيني بصافية لا للسلاف ولا للورد رياها».

كان الأستاذ أحمد رامي لا يستطيع أحيانًا البقاء لسماع الوصلة الثالثة لأنها كانت تبدأ بعد الساعة الثانية أو الثالثة صباحًا فكان يُعطيني كعب تذكرته لأجلس في مكانه في منتصف الصف الأول وهو أحسن مكان.

وذات مَرة كنتُ أتحدث معه على باب سينما قصر النيل قبل الوصلة الثالثة وطال الحديث معه، ذهب هو إلى منزله ودخلتُ أنا للجلوس في مكانه، وكانت المقدمة الموسيقية بدأت تعزف وأم كلثوم جالسة على الكرسي والأضواء عليها، بينما أضواء الصالة خافتة وهي

بالطبع لم تكن تلبس النظارة وهي تغني.

ذهبتُ بهدوء متجهًا إلى مكان كرسي الأستاذ أحمد رامي الذي كان أمامها مباشرةً ولاحظتُ نظراتها نحوي بقلق حتى وصلتُ أنا للكرسي ولاحظتْ وجهي فابتسمت وذهب القلق من وجهها.

السبب في ذلك هو أنها ظنت أنني شخص مجنون سيصعد على المسرح لكي يُقبل يدها أو يقوم بشيء آخر.

كان الزمن مختلف عن ما هو عليه الآن، لم يكن هناك رجال أمن داخل أو خارج الصالة ولم يكن هناك رجال أمن أمام منزل أم كلثوم أيضًا.

وحتى بالرغم من الأمن الشديد الذي كان في مسرح الأوليمبيا في باريس (عندما كانت تغني الأطلال في حفلة بعد حرب 67) صَعَدَ رَجل على المسرح وحاول أن يُقَبِل قدمها وهي رفضت وسحبت قدمها ثم فقدتْ توازنها ووقعت وبعد كل ذلك صَعَدَ رجال الأمن على المسرح للقبض على هذا الرجل.

أضف أنَّ حظي في الجلوس في الصفوف الأمامية جعلني أسعد بسماع صوتها مباشرةً دون الأجهزة الصوتية (ميكروفونات ومكبرات الصوت).

ففي ذلك الوقت كانت أجهزة التسجيل ليست متطورة كما هي الآن، مهما كان صوتها جميلًا في التسجيلات التي نسمعها الآن فكان صوتها الطبيعي أجمل بكثير، أنا شاهد على ذلك، لست شاهدا فقط بل مستمع أيضًا.

أحمد رامي صديق أم حبيب؟

في إحدى ندوات جمعية أم كلثوم بهندسة عين شمس في سنة 1966 قالت الدكتورة نعمات عن حب أحمد رامي لأم كلثوم التالي:

«رامي يُحب أم كلثوم بشاعريته وإحساسه وقلبه، يحبها حبًا عذريًا متساميًا، حبًا مترف الإحساس لفنان طروب يُبدع الكلمة ويعرف جرس اللفظ ورنين الوتر.

حُب رامي لأم كلثوم شعاع هادي، وهو ما تبقى من تلك الجذوة المشتعلة العارمة التي أضاء وهجها قبل زواجه والتي على نورها قال:

«يا اللي رضاك أوهام والشهد فيك أحلام حتى الجفا محروم منه» ورامي يؤمن أنها حين تقف لتغني إنما تغني له قبل كل الجمهور وتنظر إليه ملتمسة وقع أدائها على نفسه».

كان أول لقاء لي مع الشاعر الكبير المحبوب الأستاذ أحمد رامي سنة 1964م لعمل حديث معه لمجلة الحائط في كُلية هندسة عين شمس حيث كنت طالب فيها في ذلك الوقت، وكان اللقاء في مكتبه في عمارة قريبة من باب اللوق، وأعتقد أنها كانت تابعة للإذاعة والله أعلم.

أول ما لفت نظري هو سماحته وترحيبه وتواضعه، وذلك جعلني أحبه وأحترمه لشخصه، وكان شغوفًا لسماع كلامي عن صوت أم كلثوم من ناحية علم الصوتيات، وكان سعيدًا لمعرفة مدى حبي

وحب زملائي لكوكب الشرق، وكان كله نشاط وحيوية وهو يتحدث عنها.

بعد سَنة لمَّا كتب «انت الحُب» لأم كلثوم وغنتها وفيها يقول «ولمَّا اشوف حد يحبك يحلالي أجيب سرتك وياه» تذكرتُ هذه المقابلة الأُولى، دعوته لحضور ندوات جمعية أم كلثوم في الكُلية وتكرم علينا وشارك معنا الندوات والمناقشات وذكرياته منذ أن قابل السيدة أم كلثوم.

و أيضًا دعوته للذهاب معنا في رحلات.وبالفعل ذهب معنا في رحلة إلى العين السُخنة، وكان شرفًا لنا عظيم، ازداد هذا الشرف والسرور بحضور ابنته المهندسة إلهام و ابنه المهندس توحيد، وقد نشرت من قبل صورًا لبعض من هذه الندوات والرحلة في بوستات سابقة.

وكنتُ قد دعوت أم كلثوم للذهاب معنا، هي و افقت ثم مرضت قبل السفر بيوم واحد فاتصلت بي وقالت:

«قلبي هيكون معاكم المَرة دي لكن أحب أن أذهب معكم في المَرة القادمة إن شاء الله».

دعاني الأستاذ أحمد رامي لزيارته بمنزله في حدائق القبة ثلاث مرات، مرتين لأعطيه نسخًا من صوره معنا في الندوات وفي الرحلة، ومَرة عندما كان مريض والسيدة المحترمة زوجته قامت بواجب الضيافة وقدمت لنا شاي جميل وحلويات.

والتقينا كثيرًا بعد ذلك في حفلات السيدة أم كلثوم الخميس الأول من كل شهر في موسمها الغنائي من ديسمبر حتى يونيه إلى أن قمت بالهجرة من مصر إلى كندا آخر عام 1969م.

وكما ذكرت سابقًا كان يعطني تذكرته لكي أجلس في مكانه في الصف الأول في المنتصف لأنه كان يُرهق بعد وصلتين طويلتين في السنين الأخيرة، وقبل هجرتي إلى كندا كان حلم كل إنسان له حظ مثلي أن يكون بهذا القرب من السيدة أم كلثوم وهي تغني.

كنتُ أراسله من كندا وكان ابنه توحيد يُقيم في نيويورك في هذا الوقت في أوائل السبعينيات، وذات مَرة وضع خطابه لتوحيد في ظرف موجه لي أنا، وأعتقد أن العكس قد حدث فهو وضع خطابه لي في ظرف توحيد. طبعًا أنا أعدت له خطاب توحيد.

كان الأستاذ رامي حنونًا و إنسانًا غاية في الروعة والذكاء والمحبة –رحمه الله– وكان قد ولد في حي السيدة زينب في القاهرة سنة 1892م، درس في مدرسة المعلمين، وتخرج فيها سنة 1914م.

سافر إلى باريس في بعثة من أجل تعلم نظم الوثائق والمكتبات واللغات الشرقية، وحصل على شهادة في المكتبات والوثائق من جامعة السوربون.

غنتْ أم كلثوم أشعاره قبل أن تراه، وقبل سفره لفرنسا ترك بعض أشعاره مع الملحن الشيخ أبو العلا محمد، ولمَّا رجع لمصر سنة 1924م أخذه الشيخ أبو العلا معه إلى مسرح الأزبكية في حفلة لأم كلثوم.

عندما رآها ترتدي عقال وعباية وحزام حول وسطها وقبل أن يسمع صوتها أو يتحدث معها قال «دي فقي مش مطربة»، ولكن هذا الانطباع تغير بسرعة أول ما سمع صوتها وهي تغني، ودخل ليُقدم نفسه لها و انبهر حين علم بذكائها وخفة دمها.

أول ما قالت له كان: «أهلًا يا سي رامي، إنت اللي اتفضحت؟»، اندهش من ذلك ثم فهم أن قصدها شعره الذي غنته «الصب تفضحه عيونه».

وبدأت معه منذ هذا اللقاء مشوارًا فنيًا حافلًا استمر حتى وفاتها، وكان خلاله مؤلفًا لمعظم وأجمل أغانيها وصديقًا ومستشارًا لها.

خصصت له أم كلثوم يوم الاثنين من كل أسبوع حيث كان أجازة دار الكتب التي كان يعمل بها، وفي الغالب لم تقابل أي شخص آخر في هذا اليوم، وكان يتحدث معها تلفونيًا كل يوم.

أكثر من مَرة.قال لنا أنَّ أم كلثوم كانت وهي تغني كأنها تصلي وتتعبد، قال لنا أنَّ أم كلثوم هي السحر الذي وضعه الله في صوتها البديع.

وردًا على سؤال ما هو الأهم في نجاح الأغنية الكلمات أو اللحن أو الأداء قال على وجه العموم الثلاثة مهمين، ولكن مطربين ومطربات غير أم كلثوم غنوا أشعاره، والملحنون الذين لحنوا لأم كلثوم لحنوا لغيرها من المطربين والمطربات وفي النهاية الأغاني التي تغنيها أم كلثوم هي التي تنجح نجاحًا يفوق الوصف ويكتب لها الخلود.

نستنتج من ذلك إذًا أنَّ الصوت والأداء في أغاني أم كلثوم بدون شك هما العاملان الأساسيان في نجاح أغانيها.

قال أنه كان يحب أم كلثوم كما يحب الهرم الأكبر، لم يفكر أن يصعد إليه ولم يفكر في أن يلمسه، ولكن كان مبهورًا بعظمته وشموخه والإعجاز في صنعه.

عندما سأله أحد الزملاء لماذا لم يتزوجها؟ ضحك وقال:

«فيه حد يتجوز الهرم أو نهر النيل لأنه بيحبه؟».

كتب الشاعر الكبير الأستاذ أحمد رامي وأنا أعتبره أهم الشخصيات في مملكة أم كلثوم عدة قصائد عن السيدة أم كلثوم خلال حياتها، وأهداهم لها، ثم كانت قصيدته التي أبكت الملايين والتي أُذيعت على الهواء مباشرة في فبراير سنة 1976م في الاحتفال بذكرى مرور سنة على وفاتها وهي مسجلة تليفزيونيًا.

وبعدها وقف الرئيس أنور السادات والدموع في عينيه وقال أنه لم يجد ما يقول بعد كلمات رامي، كل هذه القصائد في غاية الروعة، لكن القصيدة التي سماها أحمد رامي «إليك» هي المفضلة عندي.

يُقال أنه عندما تُسأل السيدة الفاضلة زوجة الشاعر الكبير الأستاذ أحمد رامي عن حُب رامي لأم كلثوم كانت تقول:

«و أنا كمان بحبها».

حضرتْ السيدة أم كلثوم حفل زواج المهندسة إلهام بنت الشاعر الكبير الأستاذ أحمد رامي سنة 1967م. وغنت فيه أغنية

واحدة وهي (حيرت قلبي) وبدون ميكروفون، تخيلوا سعادة الذين حضروا هذا الحفل.

كانت (أقبل الليل) هي آخر قصيدة غنتها السيدة أم كلثوم للشاعر الكبير الأستاذ أحمد رامي ومن أجمل ألحان الموسيقار الرائع رياض السنباطي، كتبها الأستاذ أحمد رامي عندما كانت ابنته المهندسة إلهام في بعثة دراسية في ألمانيا وكان يفتقدها كثيرًا، وحسب مفهومي ومعلوماتي كان في هذه القصيدة الشعرية يعبر عن حنينه وأشواقه الشديدة إليها.

ويُعد أحمد رامي أكثر الشعراء تعاونًا مع أم كلثوم، إذ كتب لها نحو 150 أغنية.

في إحدى السهرات الخاصة التي حضرها أمير الشعراء أحمد شوقي والسيدة أم كلثوم، قدَّم شوقي لكوكب الشرق كأس من الخمر بالرغم من أنَّ الكل كان يعرف أنها لم تكن تشرب الخمر، وبالطبع رفضت، ولكن لم ترد أن تحرجه فأمسكت ثومة بالكأس وتظاهرت بأنها تقرب الكأس من فمها وهي تلتفت يمنة ويسرة متظاهرة بأنها تحتسيها كباقي الضيوف.

فلما تأكدت بأنه لا أحد يراها سكبت الكأس في مزهرية كانت بجانبها، وكان شوقي بالمرصاد لها إذ كان يختلس النظر من مكان خفيّ. فلما رأى المشهد جاءه الإلهام تاركًا الضيوف ودخل مكتبه وأغلق عليه بابه حتى انتهى من صياغة قصيدته الرائعة (سلوا كؤوس الطلا)، وذهب أحمد شوقي اليوم التالي إلى منزل أم كلثوم وقدم لها هذه القصيدة.

هي غنتها سنة 1946م بعد أن طلبت من الأستاذ أحمد رامي بتغيير في البيت الرابع، وكان شوقي قد أبدعه بقوله:

(هيفاء كالبان يلتف النسيم بها، وينتهي فيه تحت الوشي عطفاها).

فصاغه أحمد رامي كالآتي:

(هيفاء كالبان يلتف النسيم بها، ويلفت الطير تحت الوشي عطفاها).

هذه القصيدة أحمد شوقي وصف فيها شخصية وصوت أم كلثوم. فالطلا يعني الخمر، ثناياها أي أسنانها، الروض يعني الحديقة حيث كانت تغني، وكلمة الورد هُنا معناها لن يرد مثلها في المستقبل.

كلمات قصيدة سلوا كؤوس الطلا شِعر أحمد شوقي وألحان رياض السنباطي.

سلوا كؤوس الطلا هل لامست فاها

واستخبروا الراح هل مست ثناياها

باتت على الروض تسقيني بصافيه

لا للسلاف ولا للورد رياها

ما ضر لو جعلت كأسي مراشفها

ولو سقتني بصاف من حمياها

هيفاء كالبان يلتف النسيم بها

ويلفت الطير تحت الوشي عطفاها

حديثها السحر إلا أنه نغم

جرت على فم داود فغناها

حمامة الأيك من بالشجو طارحها

ومن وراء الدجى بالشوق ناجاها

ألقت إلى الليل جيدًا نافرا

ورمت إليه أذنا وحارت فيه عيناها

وعادها الشوق للأحباب فانبعثت

تبكي وتهتف أحيانًا بشكواها

يا جارة الأيك أيام الهوى ذهبت

كالحلم آهـا لأيام الهوى آها

***

(أغدًا ألقاك) تداوي جرح النكسة

في عام 1970م نشر الشاعر صالح جودت في إحدى مقالاته الأسبوعية أن أم كلثوم بعد أن غنت حفلتها في السودان في إطار حملتها لدعم المجهود الحربي في مصر بعد النكسة عام 1967م، عادت من هناك تحمل في صدرها شحنة دافئة من الحب للسودانيين وقالت لي يومئذ:

«إنَّ البلاد العربية جميعًا تعيش مع مصر في محنة النكسة، ولكن أعمقهم شعورًا بها هم أهل السودان، إنَّ مستوى الألم في النفس السودانية هو نفس مستواه في النفس المصرية، لقد كنتُ أدخل بيوتهم فأحس أنني في بيتي، وألتقي بهم فأشعر بأنني بين أهلي وعشيرتي».

ثم أضاف في حديثه ما يتعلق بشأن ما غنته أم كلثوم قائلًا: «وسألتني أم كلثوم كيف أستطيع أن أُعلن عن حبي لأهل السودان، وقبل أن أجيبها قالت بأن أغني قصيدة لشاعر من السودان».

وكانت تلك الرغبة وفق ما رواه الشاعر صالح جودت هي الدافع الأساسي لدى أم كلثوم لكي تغني فعلًا كلمات من إحدى قصائد أحد شعراء السودان المعاصرين، ومن أجل ذلك فقد كلفت صالح جودت نفسه بالبحث عن هذه القصيدة، وعن هذا قال:

«اتفقنا على أن نبحث عن القصيدة المنشودة، وطفتُ بمكتبات القاهرة واستعنت بالأصدقاء، فتجمعت لدي سبعة دواوين لسبعة

شعراء، ومضيت أدرسها ثم اخترت من كل منها قصيدة تتوفر فيها الصلاحية الغنائية، وأرسلتُ القصائد السبع لأم كلثوم لتفاضل بينها».

وبعد أيام سألتني أم كلثوم أيهم أفضل قلت:

«لقد تركت لكِ مهمة المفاضلة، حتى لا أكون منحازًا لشاعر دون آخر»، فقالت:

«لقد اخترت واحدة منها بالفعل ولكن لن أذكرها لكَ حتى أعرف رأيك»، قلت:

«إذا كنتِ تصرين فإنني أفضل قصيدة الهادي آدم فهي أصلحهم للغناء»، قالت بخفة ظلها المعهود:

«بر افو عليّ أنا، فهذه هي القصيدة التي اخترتها بالفعل».

ومن بعد هذا الاختيار شدت أم كلثوم فعلًا بكلمات هذه القصيدة في 6 مايو عام 1971م بعد أن وضع لها الألحان المتميزة الموسيقار محمد عبد الوهاب.

وبالرجوع إلى ديوان الشاعر السوداني الهادي آدم الذي نُشرت به هذه القصيدة، يتضح أن ما نُشر بالديوان شيء وما غنته أم كلثوم شيء مختلف تمامًا، حتى أنه قد يبدو أنَّ الشاعر السوداني قد اضطر لإعادة صياغة كلمات هذه القصيدة من جديد وذلك إرضاءً لأم كلثوم وشهرتها العريضة.

فنجد مطلعها:

«أغدًا ألقاك يا لهف فؤادي من غد وأحييك ولكن بفؤادي أم يدي» وقد أشار صالح جودت والذي يعود إليه الفضل في اختيارها إلى وجود تعديلات على هذه القصيدة حيث قال:

«وجاء الهادي آدم إلى القاهرة والتقى بأم كلثوم وكان معها محمد عبد الوهاب، وقرأوا القصيدة مَرة و اثنين وثلاث وعشرًا، وعدلوا وبدلوا وقدموا وأخروا، إلى أن استقروا على الصورة النهائية لهذه القصيدة، ولقد بقيت في أدراج أم كلثوم حوالي عام دون أن تشدو بها».

ومن الجدير بالذكر أنَّ كم التعديلات التي أُجريت على كلمات هذه القصيدة كبير لدرجة لم نعهدها في غيرها من القصائد التي تغنت بها أم كلثوم، وأُولى هذه التعديلات كما سبق وذكرنا كان في عنوان القصيدة نفسها، ثم شمل بعد ذلك الأبيات والكثير من كلمات هذه الأبيات.

إنه ولاشك مجهود كبير بذله الشاعر الهادي آدم حتى تصل كلماته إلى صوت وحنجرة كوكب الشرق أم كلثوم، وكذلك إلى آذان الملايين من عشاقها، كما كتبت له في الوقت نفسه شهادة بقاء أبدي في عالم الشهرة وعالم قصائد الشعر.

يُذكر أنَّ قصيدة أغدًا ألقاك اختارتها سيدة الغناء العربي أم كلثوم من بين عشرات القصائد التي قُدِمت لها إبان زيارتها للسودان في عام 1968م، وللشاعر الكبير مجموعة شعرية كاملة تضم كل أعماله الشعرية (كوخ الأشواق ونو افذ العدم وعفوًا أيها المستحيل) وتمت طباعة هذه المجموعة عن طريق مؤسسة أروقة الثقافة.

أغدًا ألقاك يا خوف فؤادي من غدي

يا لشوقي واحتراقي في انتظار الموعد

آه كم أخشى غدي هذا وأرجوه اقترابا

كنتُ استدنيه لكن هبته لمَّا أنابَ

وأهلت فرحة القرب به حين استجابا

هكذا أحتمل العمر نعيمًا وعذابا

مهجة حرة وقلبًا مسه الشوق فذابا

أنت يا جنة حبي واشتياقي وجنوني

أنت يا قبلة روحي و انطلاقي وشجوني

أغدًا تشرق أضواؤك في ليل عيوني

آه من فرحة أحلامي ومن خوف ظنوني

كم أناديك وفي لحني حنين ودعاء

يا رجائي أنا كم عذبني طول الرجاء

أنا لولا أنت لم أحفل بمن راح وجاء

أنا أحيا لغدي الآن بأحلام اللقاء

فأت أو لا تأت أو فافعل بقلبي ما تشاء

هذه الدنيا كتاب أنت فيه الفكر

هذه الدنيا ليالي أنت فيها العمر

هذه الدنيا عيون أنت فيها البصر

هذه الدنيا سماء أنت فيها القمر

فأرحم القلب الذي يصبو إليك

فغدًا تملكه بين يديك

وغدًا تأتلق الجنة أنهارًا وظلا

وغدًا ننسى فلا نأسى على ماضٍ تولى

وغدًا نزهو فلا نعرف للغيب محلا

وغدًا للحاضر الزاهر نحيا ليس إلا

قد يكون الغيب حلوًا إنما الحاضر أحلى

***

عبد الوهاب في الطابوروكرسي القصبجي الخالي

سألني أحد الأصدقاء هل قابلت الموسيقار الأستاذ محمد عبد الوهاب أو عملت معه؟ حديث لمجلة الحائط لجمعية أم كلثوم بهندسة عين شمس.

لم أُجرِ معه حديث وإنما رأيته أكثر من مَرة وراء السِتارة في حفلات أم كلثوم التي حضرتها، وكان ذلك بين وصلاتها في حجرة استراحتها.

كان يقف في الطابور أمام الحجرة مع أفراد من الجمهور الذين يريدون السلام عليها أو يطلبون منها الإمضاء على الأوتجراف، وذات مَرة أنا سلمت عليه هناك وهنأته بعد أن غنت أم كلثوم أغنية (أمل حياتي)، وقد كان الجميع يوسعوا له الطريق ليدخل الحجرة بدون أن يقف في الطابور ولكنه كان يرفض ويصر على الوقوف مكانه في الطابور.

وذات مَرة كانت هناك سيدة تقف خلفه في الطابور وبدأت تكح وبسرعة وضع منديله على وجهه وخرج من الطابور وقال:

«قولوا لها بلاش تدخل على الست أنا خايف يكون عندها برد وتعديها أو تعديني».

ثم دخل مباشرةً حجرة استراحة أم كلثوم وقفل الباب ولم يستطع أحد الدخول بعده، اضطر الواقفون في الطابور للعودة بعد الوصلة الثانية.

بينما كنتُ طالبًا في هندسة عين شمس أجريتُ حديث لمجلة الحائط مع الموسيقار محمد القصبجي في شقته في دورعالي لا أذكر إن كان رابع أو خامس دور في عمارة بالقرب من ميدان العتبة، كلمني كثيرًا عن حياته الفنية مع السيدة أم كلثوم، كان ذلك في الأسبوع الأول من شهر مارس سنة 1966م.

طلب مني أن أريه المقالة قبل نشرها، لم يسع الوقت لذلك فقد تُوفيّ في 26 من هذا الشهر.

عندما قابلته لم يبدو عليه أي مرض وكانت وفاته مفاجأة حزينة، ذهبت لحضور الجنازة وتحدثت قليلًا مع الأستاذ أحمد رامي في صوان العزاء، كان حزينًا و أثناء خروج الجثمان من المنزل شاهدت السيدة أم كلثوم تطل من الشباك وتبكي بشدة بجوار أسرة الأستاذ القصبجي.

عندما عدت إلى الكُلية كان قد فاتني محاضرة مهمة، فشرحتُ للبروفيسور الدكتور ميلاد حنا سبب غيابي ولاحظ الحُزن عليّ فقال:

«فنان زي القصبجي لا يموت، بل يعيش بأعماله وموسيقاه مثل كبار الموسيقيين تشايكوفسكي».

في 1923م استمع محمد القصبجي إلى السيدة أم كلثوم وأُعجب بها، وفي عام 1924م لحن أول أغنية لأم كلثوم وهي (آل إيه حلف مايكلمنيش) وظلَّ منذ ذلك اليوم يعاونها لآخر يوم في حياته، كما يُنسب إليه فضل التجديد في المونولوج الغنائي بدايةً من (إن كنت أسامح و أنسى الأسية) إلى (رق الحبيب) غناء كوكب الشرق أم كلثوم.

وقد كان في كل هذه الألحان وغيرها وباعتراف أبرز الموسيقيين والنقاد زعيم التجديد في الموسيقى المصرية، كان يحمل للسيدة أم كلثوم المحبة والصداقة والتقدير، وكان فخورًا بأنه من أوائل الملحنين لها، وهي كانت تبادله نفس الشعور، لم يكن له دور في الموسيقى أثناء حفلاتها الشهرية سوى الجلوس بالعود خلفها على المسرح.

فعلتْ ذلك أم كلثوم لكي تُشعِرَه أنه يعمل مقابل العشرين جنيه في الليلة، ولا تنسوا أنَّ هذا المبلغ كان كبير في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات.

عشرون جنيه كان أكبر من مرتب طبيب أو مهندس في الشهر، هو كان يتقاضاه ليوم واحد، أم كلثوم كانت تدفع له ولكل من عمل معها المبلغ المتعاقد عليه، وللعلم دخلها من حفلات الإذاعة لم يكن كبيرًا (على ما أذكر كان ألف جنيه في الشهر)، ودخلها من الحفلات الخيرية كان يذهب كله للأعمال الخيرية.

هو كان يشتكي من سوء حالته المادية في السنين الأخيرة من حياته، وذكر للصحافة أنَّ دخله الوحيد كان العشرون جنيه شهريًا من أم كلثوم.

وأساء الكثيرون الفهم أنه كان يشتكي منها، ولكنه شرح لي في المقابلة أنه كان يقصد الاعتراف بجميلها وكان يقصد أن تساعده الدولة أو صندوق إعانة الفنانين الذي كان يوجد في هذا الزمن.

وبهذه المناسبة أحب أن أضيف أنَّ أم كلثوم كانت تتبرع كثيرًا لهذا الصندوق، وعندما حازت على جوائز ذات قيمة مادية تبرعت بها لهذا الصندوق.

على كرسي خشب رضيّ بالجلوس في السنين الأخيرة من حياته وراء السيدة أم كلثوم ليكون قريبًا منها في الحفلات محتضنًا عوده لسنوات.

مؤثرًا أن يكون عضوًا كباقي أعضاء فرقتها وهو الموسيقار الكبير، الذي أثرى الموسيقى العربية بالعديد من الأعمال التي كانت سببًا في تطورها.

هذا هو العملاق محمد القصبجي، وفي أُولى حفلاتها الشهرية بعد ما مات، ولا أذكر كم مَرة بعد ذلك أصرت السيدة أم كلثوم أن يبقى هذا الكرسي الذي كان يجلس عليه خلفها في الحفلات موجود في نفس مكانه وراءها خاليًا احترامًا لذكراه.

***

خفة دم الست

كانت السيدة أم كلثوم معروفة بالذكاء الحـــاد وسرعـــة البديهة مع خفة الدم، وهناك بعض المو اقف الدالة على ذلك وأذكـــر منها:

– يُقال أن عند خروجها من إحدى حفلاتها صاح أحد الأشخاص الذين كانوا يحاولون النظر إليها عن قرب بلهجة أهل صعيد مصر وقال: «إنتي جاموس الفن»، فدهش الناظرون ولكن أم كلثوم فهمت ما كان يعني وردت بسرعة وبنفس اللهجة: «وفين العجول اللي تفهم».

لأصدقائي الذين لا يعرفون اللهجات المصرية:

أهل صعيد مصر يُبدلون في حديثهم حرف القاف بحرف الجيم، بالطبع عندما قال جاموس كان يقصد قاموس وعندما ردت هي للمزاح قالت العجول بدلًا من العقول.

– كانت أم كلثوم تجلس في حجرة الاستراحة في إحدى حفلاتها ومعها بعض الأصدقاء، ودخل رجل موظف في الحكومة معروف عنه أنه غير أمين في معاملاته المادية و أنه يسرق أموال الناس، حاول أن يُسلم عليها فلم تمد يدها.

قال أنه يريد أن يُقبل يدها بالرغم من أنَّ فمه يوجعه، قالت له:

«لمَّا بقك بيوجعك أمال بتاكل فلوس الناس ازاي؟».

لم يستطع الرد، فقالت له: «إنت لازم بتظلتهم».

– كان أحد الجيران يسكن بالقرب من منزلها بالزمالك وكان يحاول أن يزورها بأي وسيلة، وذات مَرة كانت تستقبل بعض أصدقائها من الشعراء والكُتاب والموسيقيين فدخل معهم هذا الجار بدون دعوة، فقال لها أحد الحاضرون:

«يا ثومة ممكن تعرفينا بالأستاذ؟» فردت أم كلثوم بسرعة وقالت: «الأستاذ ده جرثومة».

مع العلم أن ثومة هو اسم الدلع لأم كلثوم وينطقه المصريون سومة حيث أنهم ينطقون حرف أل (ث) أحيانًا (ت) وأحيانًا أخرى (س).

– جلس بجوار السيدة أم كلثوم في نادي رياضي أحد باشاوات زمان، كان قصير القامة وصغير الحجم وكان معروفًا بحب الاستطلاع بدرجة شديدة، فتحتْ أم كلثوم حقيبة يدها لتبحث عن شيء، فاقترب منها الباشا ونكث رأسه ليرى ماذا تبحث في حقيبتها، فقالت له السيدة أم كلثوم على مسمع الحاضرين:

«حاسب يا باشا أحسن تقع في الشنطة».

– في حديث إذاعي مسجل في السبعينيات كانت أم كلثوم تقرأ قصيدة ثورة الشك شعرًا فداعبها المذيع بقوله: «حضرتك بقى تيجي تقدمي برنامج شِعري في الإذاعة»، فردت عليه في ثانية: «كويس و انت تروح تقف على المسرح وتغني».

– التقت السيدة أم كلثوم في إحدى المناسبات بصحفي غليظ فاقترب منها وعرَّفها على زوجته وقال لها: «إيه رأيك في مراتي؟»، فقالت أم كلثوم فورًا: «انت ذوقك حلو بس هي لأ».

– نجيب حنكش كان شاعروكاتب وإعلامي وملحن لبناني ومقدم برامج تلفزيونية في لبنان، وهو الذي لحن أغنية فيروز الرائعة «أعطني الناي وغني»، وكان مرحًا وفكاهيًا معروف بلقب ظريف لبنان.

أرسل الأستاذ حنكش في سنة 1966م تلغراف للسيدة أم كلثوم وهي تستعد للسفر للغناء في بعلبك يقول فيه:

«هياكل بعلبك أعجوبة الماضي البعيد تُرحب بقمة الطرب المعاصر وصاحبة الصوت المعجزة أم كلثوم، أجمل ما نقشه الإنسان على الحجر، وأروع ما خلقه الله من أصوات البشر، سيلتقيان على مدرج هياكل جويتير، أهلًا بسيدة الطرب وأكاد أقول خاتمة المطربات، وسهلًا بمَن تستعمر قلوب الملايين ولكن بالكلمة الحلوة والصوت الفريد».

وكان رد السيدة أم كلثوم برسالة قالت فيها:

«شكراً لتلغر افك المزركش يا سيد حنكش».

– كان فيه أزمة زيت وسكر في مصر في الستينيات لفترة قصيرة، وزادت أسعارهم كثيرًا، كانت السيدة أم كلثوم تجلس مع أصدقاء في حجرة الاستراحة بين وصلتين في حفلة، ودخل رجلًا معروفًا عنه أنه يحب المبالغة، و أنه لا يهتم بالأناقة والنظافة في ملابسه، قال للسيدة أم كلثوم:

«أنا اشتريت الكر افتة دي بعشرة جنيه عشان ألبسها في حفلة حضرتك الليلة».

وكانت عشرة جنيه مبلغ محترم وقتها، فضحك الحاضرون وقال أحدهم: «إن الكر افتة متسواش أكتر من خمسين قرش».

فردت أم كلثوم وقالت:

«لا دي تساوي أكتر، شوفوا عليها زيت تمنه فوق العَشرة جنيه».

هذه القصة قالتها الكاتبة الأستاذة الدكتورة نعمات أحمد فؤاد في إحدى ندوات جمعية أم كلثوم بهندسة عين شمس سنة 1965م، وتم نشرها في مجلة الحائط بالكُلية وقتها.

الدكتورة نعمات نشرتها في مقالة لها أوكِتاب بعد ذلك بـ11 سنة، وكان الشاعر الكبير الأستاذ أحمد رامي يشرفنا وجوده معنا في هذه الندوة.

– كانت السيدة أم كلثوم تستعد للذهاب للإسكندرية لإحياء حفلة خيرية، وفي هذا اليوم مرض سواق سيارتها فقررت الذهاب مع بعض أعضاء فرقتها بالقطار، وكان معهم الأستاذ محمد القصبجي، أخرج القصبجي من جيبه قلم أسود مخصوص لحواجب السيدات ودهن به شاربه، فضحكت أم كلثوم وقالت: «شوفوا الراجل قدر يِرَجع شبابه بجرة قلم».

***

زواج أم كلثوم

سألني أحد الأصدقاء عن الدكتور (حسن الحفناوي) زوج السيدة أم كلثوم وهل أنا قابلته؟

في الحقيقة لم يكن موجود بمنزل أم كلثوم في أي مَرة كنت أجري حديث معها لمجلة الحائط الخاصة بجمعية أم كلثوم بهندسة عين شمس.

في جريدة الأهرام بتاريخ 17 سبتمبر سنة 1954م كان هذا الخبر الصغير الذي قلب الدنيا رأسًا على عقب:

«احتُفل في نهاية شهر يونيو الماضي بعقد قران مطربة الشرق الآنسة أم كلثوم بالدكتور حسن الحفناوي الأستاذ المساعد بكلية طب القصر العيني وذلك في حفل بسيط لم يحضره إلَّا عدد لا يزيد عن ثلاثة أشخاص من أهلها، وقد اتفق أن تستمر أم كلثوم في أداء رسالتها نحو الفن فلن تحرم ملايين العشاق من فنها الرفيع وصوتها الملائكي.

تزوجت أم كلثوم إذًا وكان عمرها خمسة وخمسين سنة ونصف وتغير اسمها من الآنسة أم كلثوم إلى السيدة أم كلثوم.

ونادرًا ما تحدثت الصحف عن الدكتور حسن الحفناوي أو نشرت صورًا له، ولم يسأل الصحفيين أم كلثوم عنه ولم تتحدث هي عنه في الصحافة.

حسب معلوماتي ذات مَرة كان يجلس بجواري في إحدى حفلاتها وغنت فيها (انت الحُب) لثاني أو ثالث مَرة لا أذكر، وفي نهاية الأغنية نظر لي، لم يُقدم نفسه لي ولم أقدم نفسي له، وقال: «دي مش أغنية دي سيمفونية».

وسألني كيف استطعت الحصول على تذكرة وفي الصف الثالث؟ قلت له بدون تفاصيل إنها كانت عن طريق أم كلثوم نفسها واستلمتها من منزلها، قال لي هو أيضًا حصل على تذكرته بنفس الطريقة.

سألني عن اسمي وماذا أعمل. قلت له، قال لي أنا افتكرت هي كلمتني عنك وعن دراستك، قلت له هل هي تقول لك كل شيء؟ قال هي صديقتي وتحكي لي على بعض الأشياء التي تسرها فقط.

وأخبرني أنه عائد للتو من بعثة دراسية في إنجلترا، سألته عن علاقته بها، قال بفخر أنها صديقته ثم قال باللغة الانجليزية:

She is a friend of mine.

ولم أجد ماذا أقول له وتركته وذهبت للطابور أمام حجرة استراحتها لأُسلم عليها.

***

قصة صورتي مع أم كلثوم

أغلى صورة مع أم كلثوم بـ2 جنيه.

من أين يمكن أن أبدأ؟ أعتقد أنه لا توجد بداية أفضل من الصورة التي تجمعني بها.

كان ذلك في حفلتها الشهرية يوم الخميس 4 مارس 1965م في مسرح الأزبكية، وكنتُ وقتها طالب في كُلية الهندسة بجامعة عين شمس في القاهرة، بعد الوصلة الثانية التي كانت «انت الحُب» لأول مَرة في حفلة 4 مارس 1965..

وكانت الوصلة الثانية بين أراك عصيّ الدمع وكل ليلة وكل يوم، رأيت مصور يمسك الكاميرا ويصور بعض الحاضرين، قلت له: «هل ممكن تصورني مع أم كلثوم؟»، قال لي: «لو هي و افقت».

كانت هي تستريح قبل الوصلة الثالثة، قلت له يدخل معي وراء السِتارة و انتظرنا مع الفرقة الموسيقية، ثم خرجت أم كلثوم من حجرة الاستراحة إلى المسرح والسِتارة ما زالت مغلقة.

وكنت أنا أقف بالقرب من الأستاذ محمد عبده صالح وعازف الكمنجة الأول الأستاذ الحفناوي، فتقدمت منها، ثم أشرت بيدي ناحية المصور وقلت لها: «هل تسمحي أن أتصور مع حضرتك؟» فابتسمت وقالت: «ممكن».

أنا وقفت على بعد حوالي 30 سنتيمتر منها احترامًا لها، فنظرت لي وقالت: «انت خايف مني ولا إيه؟»، ثم أمسكت بيدي وقربتني منها وأخذ المصور الصورة.

أخذ المصور مني جنيهًا واحدًا ثمن الصورة وأعطاني وصل وفيه عنوان الاستديو، وقال لي أن أذهب لأخذ الصورة بعد أسبوع، علمًا بأن مصروفي الشهري في ذلك الوقت كان اثنين جنيه.

ذهبت في يوم 11 مارس حتى أستلم الصورة، وكان هذا الاستديو في شارع فؤاد (26 يوليو) بالقرب من شارع سليمان باشا.

المصور لم يكن موجود لكن مساعده وجدها وأعطاها لي، طلبت النجاتيف (العفريتة) فقال لي واحد جنيه أيضًا، وكان هذا أحسن استثمار في حياتي.

أذكر شعوري و أنا عائد إلى البيت، فقد كنت أشعر بأني طائر في السماء ولمست النجوم بيدي.

كانت السيدة أم كلثوم تستريح لمدة تقرب من ساعة بين الوصلات، ويقف الجمهور كبيرًا وصغيرًا في صف أو طابور طويل أمام حجرة الاستراحة لتحيتها شخصيًا، ذهبت أنا ومعي الصورة ووقفت في هذا الطابور بعد الوصلة الأُولى من الحفلة التالية الخميس الأول من شهر إبريل 1965م وطلبتُ منها أن توقع على ظهر الصورة وفعلت ذلك ثم قالت لي: «ابعت لي نسخة من الصورة دي»، وبالطبع لبيت طلبها.

كان هذا أول لقاء لي مع السيدة أم كلثوم ولم يكن الأخير، فقد التقيت معها مرات كثيرة بعد ذلك واستمرت هذه اللقاءات حتى أن هاجرتُ من مصر إلى كندا في أخر شهر نوفمبر 1969م.

***

صعوبة الحصول على تذاكر لحفلات أم كلثوم!

كنت منذ صغري أحب أسمع أم كلثوم وأذاكر والراديو شغال على المحطة التي كانت تُذيع أغانيها من الساعة 4 وحتى 7 بعد الظُهر.

أذكر أن شخص من أقاربي قال أنه حضر حفل لها ووصفها أنها كانت خيالية، سنة 1963م قررتُ أن أشتري تذكرة وأذهب لرؤيتها وسماعها في مسرح الأزبكية، كان هناك نوعين من الحفلات حفلة الإذاعة الخميس الأول من كل شهر من ديسمبر حتى يونيه والأسعار لم تكن غالية.

البلكونة 75 قرش والصالة تحت 2 جنيه، الفكرة أن الدخل لم يكن من التذاكر و إنما من حق إذاعتها في مصر والدول العربية والأسطوانات وغير ذلك، كان هذا هو الاتفاق والشروط بين السيدة أم كلثوم والإذاعة منذ سنة 1934م.

وأعتقد دخلها الشخصي كان 1000 جنيه شهريًا من الإذاعة والله أعلم هذا ما أذكر أني قرأت في الأهرام أو الأخبار منذ زمن.

ولكن المعجزة كانت في الحصول على تذكرة وسوف اشرح ذلك فيما بعد.

ومن الجدير بالذكر أنه من لم يستطع الجلوس للوصلة الثالثة يخرج ويبيع التذكرة لهذه الوصلة الواحدة ب 100 جنيه، وكان يتهافت عليها الذين حضروا لمصر من الدول العربية ولم يتمكنوا من الحصول على تذاكر.

النوع الثاني من حفلاتها كان الحفلات الخيرية وما كان أكثرها، كل دخل هذه الحفلات كان لصالح الجمعيات الخيرية مثل النور والأمل وغيرها، والتذاكر في هذه الحفلات كانت غالية جدًا بالنسبة لي حيث كان مصروفي الشهري 2 جنيه والتذاكر فيها كانت من 10 جنيه حتى 100 جنيه وكانت تُباع بسرعة.

ذهبت لشراء تذكرة لحفلة إذاعة من مبنى في باب اللوق، كان الموظف المختص بذلك (لا أريد ذكر اسمه) يقول لي أجلس على الكرسي لفترة، وبينما أنا أنتظر كان أمامي صف طويل من كبار الشخصيات في مصر وأمراء وأميرات من دول عربية ومعهم هدايا قيمة له.

وبعد طول انتظار يقول لي: «التذاكر كلها خلصت تعالى الشهر اللي جاي»، والشهر اللي بعده نفس القصة، وبعد 3 محاولات فاض بي الكيل فكتبت خطاب للسيدة أم كلثوم على عنوانها في 5 شارع أبو الفدا في الزمالك وبالطبع شرحت لها ما حدث وأضفت عنوان منزلنا ورقم التليفون.

وبعد 3 أيام اتصلت بي واحدة تُدعى الست إحسان من منزل السيدة أم كلثوم (وعلى فكرة أنا اعتبرت الست إحسان هي الجندي المجهول في مملكة أم كلثوم وسوف أتحدث عنها في المستقبل إن شاء الله).

قالت لي الست إحسان: «الست وصلها جو ابك وبتقول لك تيجي تاخد التذكرة من منزلها».

أبي وأمي قالوا لي لا بد أن تصر على دفع ثمن التذكرة، ذهبت ومعي مصروفي ال 2 جنيه وقلت لبواب الفيلا عن سبب زيارتي، تركني ودخل ولمَّا عاد كان معه التذكرة واسمي مكتوب على ظهرها بخط السيدة أم كلثوم وكانت التذكرة في الصف الثالث.

أعطيته 2 جنيه ولا أدري هل وصَّل هذا المبلغ للسيدة أم كلثوم أم لا، ولا أدري ماذا فعلت السيدة أم كلثوم مع موظف الإذاعة المسؤول عن التذاكر، ولكن كل هذا لا يهم.

منذ هذا الوقت عام 1963م وحتى أن هاجرت من مصر إلى كندا في آخر نوفمبر 1969م كانت تذكرتي كل شهر أحصل عليها من منزل السيدة أم كلثوم بنفس الطريقة وفي الصف الثالث ومن الجدير بالذكر أن والدي زاد مصروفي.

بعد ذلك كانت الحفلات في مسرح الأزبكية حتى سنة 1966م تقريبًا، ثم حُولِت إلى سينما قصر النيل لأنها أكبر.

كان الشاعر الكبير المحبوب الأستاذ أحمد رامي يجلس في أول صف في المنتصف، وفي السنين الأخيرة قبل هجرتي كان أحيانًا لا يستطيع الانتظار للوصلة الثالثة التي كانت تبدأ حوالي الساعة 2 ونصف أو 3 صباحًا، فكان يعطيني كعب تذكرته لكي أستمتع بالجلوس في مكانه، من الصعب أن أصف إحساسي و أنا جالس أمام أم كلثوم وبهذا القرب وأسمع صوتها مباشرةً بدون ميكرفون.

***

كارت بوستال من كندا

بعد هجرتي لكندا كان أول كارت بوستال أرسلته للسيدة أم كلثوم من كندا في أوائل سنة 1970م وكان يشمل بيت شعر من أغانيها: «ولا حملت نفس هوى لبلادها كنفسي في فعلي وفي نفساتي" كلمات أحمد شوقي وألحان رياض السنباطي وصوت أم كلثوم.

وفي كارت آخر كتبت لها: «وحنيني لك يكوي أضلعي والتواني جمرات في دمي» من أغنية الأطلال من كلمات د إبراهيم ناجي وألحان رياض السنباطي.

بعد ذلك بفترة تحدثت مع الشاعر الحبيب الأستاذ أحمد رامي وقال لي أن السيدة أم كلثوم تكلمت معه بالتليفون وذكرت له بصوت حزين هذين الكارتين وقال لي أنه أحس أنها كانت تبكي، وقالت أنها شعرت بشيء من الندم أنها شجعتني على السفر والبُعد عن مصر وأهلي وأصدقائي للدراسة بالخارج.

قال لي الأستاذ أحمد رامي أنه حاول أن يواسيها بأنه هو أيضًا يفتقدني ويفتقد ابنه توحيد الذي كان مسافر في أمريكا، و أنه يراسلنا أنا وتوحيد، ويؤكد لها أن السفر لمصلحتنا ولمستقبلنا وأن حنيني لمصر ولحفلاتها شيء متوقع، وأنها ستراني مرات أخرى ناجح وسعيد.

يا لهاتان الشخصيتان العظيمتان في تاريخ مصر ويا لحظي السعيد أني كنت في ذهنهما ولو لدقائق قليلة.

***

مكالمة من أم كلثوم إلى والدتي!

كانت أحاديثي مع السيدة أم كلثوم لا تقتصر على أني أسألها وهي ترد، ولكن هي كانت أيضًا تحب أن تسألني عن دراستي واستعدادي للامتحانات وعن أسرتي أحيانًا.

وكانت تحب أن تعرف أخبار ندوات ورحلات جمعية أم كلثوم بهندسة عين شمس، وكما ذكرت في مقالة سابقة كانت تحب عمل الخير وما أكثر من حفلاتها الخيرية والوطنية طوال حياتها الفنية ومساعداتها للقرية التي ولدت ونشأت فيها.

في ذات مَرة سألتني إذا كان والدي ووالدتي يضربان لي ولإخوتي المثل في عمل الخير؟ فقلت لها أنَّ والدي وُلِد في قرية صغيرة و انتقل مع أسرته للقاهرة مباشرةً بعد ولادته حيث عاش وتمَّ تعليمه، إلَّا أنه لم ينسَ هذه القرية وكان يقدم كل ما يستطيع لمساعدة أبنائها في الدراسة ووجود وظائف لهم، وكان يساعد المحتاجين فيها حتى أطلقوا عليه لقب شيخ الفقراء.

وأنَّ والدتي كانت من وقت لآخر تعطيني بعض النقود وتطلب مني الذهاب لزيارة بعض الأُسر الذين في احتياج، وتوجهني أن أضع هذه النقود تحت مخدة أو مكان مثل ذلك حتى لا أجرح شعورهم.

وكانت أيضًا مشتركة مع صديقات لها في مشروع خيري صغير لا أذكر اسمه الآن، وفيه كانوا يشجعون الأُسر الفقيرة على عمل أي شيء يمكنهم عمله مثل كحك أو تفصيل ملابس ويمدوهم بما

يحتاجون لذلك، ثم يُنظمون لهم سوق خيرية كل فترة لبيعها، وبذلك يحفظون لهم كرامتهم.

أُعجبت السيدة أم كلثوم بهذا المشروع، وكان هذا في سنة 1969م، ولم تكن هناك فرصة أن أقص ذلك لوالديا فقد كنت مشغول في الاستعداد للسفر.

بعد أن هاجرتُ أنا من مصر في آخر نوفمبر من هذا العام اتصلت السيدة أم كلثوم بوالدتي تلفونيًا لأول وآخر مَرة، وقالت لها أنها أم كلثوم وأنها تريد أن تطمئن على أخباري منذ أن سافرت، وأنها تريد أن تساهم في المشروع الخيري لمساعدة الأُسر الفقيرة المكافحة.

لم تصدق والدتي أن المتحدثة هي أم كلثوم بنفسها وظنت أنها إحدى صديقاتها التي كانت دائمًا تدَّعي أنَّ صوتها وهي تتحدث مثل صوت أم كلثوم وكانت تحب الهزار، و أيضًا لم تعرف أمي أنني تحدثت مع أم كلثوم عن هذا المشروع واعتقدت أنها دعابة من صديقتها.

فقالت لها: «أنا تعبانة دلوقتي هكلمك بعدين».

صديقتها ماتت بعد ذلك بفترة قليلة ولم تكن هناك فرصة لتسألها عن المكالمة.

وفي إحدى خطابات أم كلثوم لي بعد ذلك و أنا في كندا كتبت أنها اتصلت بوالدتي لتسأل عني بعد أن هاجرت ووالدتي كانت مريضة ولم تريد التحدث معها في التليفون، ولكن لم تكتب عن عرضها للمساهمة في المشروع.

ونسيت أمي مع زحمة الحياة هذه المكالمة حتى توفت أم كلثوم، وبعدها كنتُ في زيارة لمصر وهي ذكرتها لي، وكانت تشعر بالحرج لهذا الموقف بعد أن تأكدت أنَّ المكالمة كانت مع السيدة أم كلثوم بنفسها وليست صديقتها كما كانت تظن.

فقلت لها أنه على كل حال السيدة أم كلثوم كسبت الثواب لأنها فكرت في المساهمة في هذا العمل الخيري.

***

لماذا هاجرت إلى كندا، وماذا قالته لي أم كلثوم عن ذلك

وصلني هذا السؤال من ثلاثة أصدقاء، لماذا هاجرت من مصر إلى كندا بالرغم من أني كنت أعيش في الزمن الجميل مع أم كلثوم وحفلاتها الرائعة؟

طفولتي والسنين الأُولى من شبابي في مصر قبل أن أهاجر إلى كندا كانت جميلة، لكن منذ صغري و أنا أحب السفر، فعندما أنهيت الثانوية كان مجموعي يدخلني أي كلية مع الأخذ في الاعتبار أن في الستينيات كانت الهندسة تأخذ أكبر المجموعات بسبب السد العالي.

كنت أحب كلية الطب، لكن الميزة في الهندسة كانت أنها أقصر من الطب وفيها سفر للتدريب في ألمانيا أو بلاد أوروبية غيرها في الصيف، لذلك دخلت الهندسة... وبعد التخرج في سنة 1968م أمر التكليف كان في شركة الجمهورية للأدوية والأجهزة الطبية في المطرية، وبعد شغلي فيها بنجاح لمدة سنة أو يزيد رجع لي حنيني للناحية الطبية فقررت أن أعمل دراسات عليا في الهندسة الطبية، ولكن لم يكن في مصر هذا التخصص في ذلك الوقت.

هاجرت إلى كندا حيث تعلمت هذا التخصص في جامعة مك جيل (Mc Gill) في مونتريال.

السؤال الثاني هو لماذا فضلت أن أكمل الحياة بعيدًا عن مصر بعد ذلك؟

لم يكن تفضيل لكن ظروف، كان وقتها حنيني للأهل والأصدقاء وحفلات أم كلثوم يكوي أضلعي، والتو اني جمرات في دمي، افتقدت كثيرًا حضور حفلات أم كلثوم، و افتقدت مقابلاتي معها والتحدث معها في التليفون (كانت قد أعطتني رقم تليفونها الخاص وأذكر منه رقمين 80).

ولم أتمكن من حضور حفلاتها من ديسمبر 1969م حتى آخر حفلة في يناير 1973م، كنت أسمع هذه الحفلات الخميس الأول من كل شهر هُنا في كندا على الراديو بالموجات القصيرة وأسجلها لكن الصوت لم يكن واضح في أحيان كثيرة، كنت آخذ نصف يوم أجازة من العمل لأن فرق الزمن 7 ساعات بين مصر وكندا.

واستمريت في المراسلة معها وكانت – رحمها الله– ترد على كل خطاب، فأنا محتفظ بكل خطاباتها الشخصية.

ومن الجدير بالذِكر أنها كانت ترد على كل الخطابات التي تصلها من أي شخص أو على معظمها.

وكما ذكرت من قبل كنت مشغولا جدًا في الدراسات والتخصص وكنت أعمل في نفس الوقت لكي أدفع مصاريف الجامعة والمعيشة الغالية في كندا.

في المَرة الأُولى التي ذهبت فيها إلى مصر كانت في صيف 1971م ولم يكن هناك حفلة لها خلال هذه الزيارة القصيرة، ولكن زرتها في منزلها وسعدت بمقابلتها.

أتممت الدراسة في 1974م وكنت قد نشرت أبحاث في الهندسة الطبية عن أجهزة جديدة لعلاج المرضى، وعُرِضت عليّ وظائف من مستشفيات وشركات في مونتريال وأوتاوا، وفي نفس الوقت وقبل أن أقرر ماذا أفعل كانت السيدة أم كلثوم تعاني من المرض، ذهبت إلى مصر وزرتها وكان يبدو عليها المرض ولكن كانت روحها المعنوية مرتفعة. وسألتها في موضوع فرص العمل التي ذكرتها فقالت:

«إنت ممكن تخدم مصر بنجاحك في كندا وعلى المستوى العالمي ومصر موجودة يا أخي ممكن ترجع لها أي وقت تشاء».

وعندما قلت لها أنَّ حفلاتها وحشتني وظهر عليّ القلق بالنسبة لصحتها قالت:

«هغني تاني إن شاء الله وهكتب لك علشان تيجي تحضر وتذكرتك هتكون عندي في البيت كالعادة».

مع الأسف كان هذا آخر لقاء معها ولم يصلني منها خطابات بعد ذلك ولم تغني بعد ذلك وماتت في 3 فبراير 1975م.

بعد ذلك بعدة سنوات عادني الشوق للعودة إلى مصر وشجعني على ذلك خطابات من المرحومة الكاتبة الكبيرة الدكتورة نعمات أحمد فؤاد وغيرها. ثم حدث أن ذهبت لتقديم بحث في مؤتمر في مدينة كولومبس في ولاية أوهايو الأمريكية.

شخص مصري كان هناك وبينما أنا كنت أتحدث عن البحث الخاص بي طلب أن يقابلني، وقال لي أنه مدير قسم الهندسة الطبية في جامعة مصرية، فتوقعت أنه كان سيحاول إقناعي بالرجوع والعمل

معه في مصر، لكن ما حدث أنه طلب مني أن أجد له أي عمل في كندا وقتها تذكرت كلمات السيدة أم كلثوم وبقيت في كندا.

ذهبت إلى مصر كل عام بعد ذلك لزيارة والدي ووالدتي وباقي أفراد الأُسرة. وبعد وفاة الوالدين قلت زيارتي.

آخر مَرة عدت إلى مصر كانت في سنة 2007م، يرن في أذني صوت السيدة أم كلثوم وهي تغني (فإذا رحمت فأنت أم أو أب هذان في الدنيا هما الرحماء).

***

بعض أحاديثي مع أم كلثوم

أجريت هذه الحوارات التالية في منزل السيدة أم كلثوم في 5 شارع أبو الفدا بالزمالك، ونشرت على حلقات متتالية في مجلة الحائط التي كنت أصدرها بالتعاون مع أصدقاء لي في كُلية الهندسة جامعة عين شمس ضمن نشاطات جمعية أم كلثوم بالجامعة ما بين عامي 1963 و1969م.

دعوني أبدأ بوصف منزل السيدة أم كلثوم الذي كان في 5 شارع أبو الفدا في الزمالك بالقاهرة.

كان في المنزل اثنين بدروم وعدة حجرات في السطوح للخدم والعاملين (البواب والسائق و...) وثلاثة طوابق:

الطابق الأول لأقاربها، والثاني للضيوف وكان فيه حجرة سفرة وصالون وصالة للبروفات، والطابق الثالث كان لها شخصيًا وكان يحتوي على حجرتين واحدة شتوية والثانية صيفية (مع الأسف لا أذكر الفرق بينهما الذي شرحته لي وإذا افتكرته سوف أضيفه فيما بعد) وكذلك حجرة مثل مكتب خاص لها.

كان أيضًا في منزلها حجرتين لعلاج الفقراء من أهل قريتها، لكن لا أذكر إذا هما في الدور الأول أم الثاني.

كان وفاؤها بأقاربها وأهل قريتها طماي الزهايرة يُضرب به المثل، فقد كانت تعالج مرضاهم وترعى فقرائهم وتصرف أموالها على تعليم أولادهم ففتحت لهم مدرسة ومستشفى ومركز ثقافي.

كانت تمشي لمدة ساعة تقريبًا كل يوم أو كلما سمح لها الوقت على كورنيش النيل، وغالبًا كان في ناحية المعادي وذلك لتقوية التنفس وللحفاظ على صوتها وصحتها.

هذا كان في موسمها الغنائي من الخريف حتى الربيع، أما في الصيف فكانت تسافر أحيانًا لدول أوروبية وكانت تمارس رياضة المشي هناك.

أما الجندي المجهول في مملكة أم كلثوم هو هذه السيدة التي تقف وراءها مباشرة، وصيفتها السيدة إحسان.

كانت تقيم في منزل أم كلثوم وخدمتها لسنين طويلة، كانت شبه سكرتيرة، وكانت متواضعة و أيضًا كانت تذهب معها للحفلات وتقف في ركن بعيد وراء السِتارة في المسرح مستعدة لعمل أي شيء تحتاجه أم كلثوم، فقد كانت تقوم بمجهود كبير للحفاظ على راحة وصحة أم كلثوم.

ذكر أحد الأصدقاء أن السيدة إحسان كانت سكرتيرة أم كلثوم، وهذا غير صحيح، الو اقع هو أنَّ السيدة أم كلثوم لم يكن لها سكرتيرة أو مدير أو مديرة أعمال أو وكيل، هي كانت تدير أعمالها وتعاقداتها لحفلاتها داخل مصر وخارجها كلها بنفسها، وكان فكري أباظة أحد أصدقائها ومحاميها في نفس الوقت وكانت تستشيره أحيانًا.

أما السيدة إحسان فكانت الوصيفة المفضلة لأنها كانت تفهم احتياجات أم كلثوم من أكل وشرب وراحة وملابس وترد على التليفون لتقلل من إزعاج أم كلثوم من رجال الصحافة وغيرهم.

كان بالمنزل أيضًا البواب وسائق السيارة وعدد من القائمين على خدمتها وبعض أفراد من أسرتها المرضى الذين كانوا يتلقوا العلاج في القاهرة أو يتعلموا في المدارس.

وهي كانت لا تحب كلمة خدامين، قالت لي: «أنا أسميهم مساعدين و أُقدر تعبهم معايا»، كانت تعاملهم معاملة حسنة وبتواضع. كانت تأكل وجباتها معهم أحيانًا وتقص عليهم الطرائف.

***

– سألتها ما هو أقرب طريق للنجاح؟

فقالت: «العمل».

– سألتها ما رأيها في الموسيقى الغربية؟

قالت أنها كانت تحب الموسيقى الغربية الكلاسيكية لأنها تُهدي الأعصاب ولأنها وصلت لمكانة فنية رفيعة، وكانت تحب أغاني المطربة الفرنسية إديث بياف (Edith Piaf).

وقالت أنَّ الموسيقى الغربية مثل لغة أجنبية ممكن نتعلمها ونسمعها ونتمتع بها ونستفيد منها، ولكنها لا تحب أن تكون هي لغتنا.

– سألتها مَن مِن الموسيقيين الغربيين كانت تسمع؟

قالت شوبان (Chopin) ورحمانينوف (Rahmaninof) وماهلر (Mahler) وفيردي (Verdi) وبتهوفن (Beethoven) وغيرهم.

– سألتها عن أمثلة لقطع موسيقية لأي منهم تحبها فقالت السيمفونية الثانية لرحمانينوف والسيمفونية الخامسة لماهلر وأوبرا عايدة تلحين فيردي.

– سألتها لمن من الأدباء المصريين كانت تقرأ؟

قالت أنها قرأت معظم ما كتب العقاد وطه حسين وهيكل وتوفيق الحكيم وغيرهم.

– سألتها ماذا عن اللغات الأجنبية؟

قالت أنها علَّمت نفسها الإنجليزية والفرنسية قبل سفرها للعلاج ولأنها كانت تحب اللغات.

– سألتها ماذا تشعر عندما تسمع أغانيها في الراديو أو التلفزيون؟

قالت: «أنا بسمعهم وبشعر بالطرب زي أي مستمع، ولكن كثيرًا ما أنتقد نفسي و أقول ياريتني غنيت الحتة دي بطريقة تانية أو طولت أو قصرت فيها وأحاول أن أحسن أجزاء منهم لمَّا أغنيهم في حفلات بعد كده».

– سألتها هل تشعر بالسعادة بعد أن حققت نجاحًا لا مثيل له؟

قالت: «طبعًا والحمد لله، ولكن السعادة إحساس مثل كل الأحاسيس الأخرى ليست لها صفة الدوام فالواحد يتمنى شيء ولمَّا يتحقق له ما يتمناه يسعد ثم يتمنى شيء أخر ويسعد بتحقيق الأمنية الجديدة وهكذا.

إنت طالب بتذاكر طول السنة وتتمنى انك تنجح وتسعد آخر السنة الدراسية بالنجاح، وتنشغل بحاجات تانية وتنسى وترجع السنة اللي بعدها تعمل نفس الشيء، الإحساس الوحيد الذي يطول في فترة السعادة هو الإحساس بالقناعة والرضا».

– سألتها هل تشعر بالوِحدة أحيانًا؟

قالت: «كثيرًا ما أشعر بالوِحدة، أشعر بالوِحدة لمَّا يكون شخص عزيز عليا بعيد عني لأي سبب، وأشعر بالوِحدة والحنين لأبي وأمي وإخوتي وأصدقائي الذين توفاهم الله، وساعات أشعر بالوِحدة و أنا أُغني أمام الجمهور، و أكثر أغنية كنت أشعر بالوِحدة و أنا أُغنيها هي (سهران لوحدي)».

– سألتها عن الآهات التي كانت تثير انفعال الجمهور فقالت:

«مش كل الآهات زي بعضها، في معظم الأوقات أنا بكون منسجمة مع اللحن وأُعبر عن انسجامي وبعدين أُعيد تلبيةً لطلب الجمهور، وفي بعض الأحيان كانت آهات من الحزن لفقد إنسان عزيز أو آهات من آلام المرض الذي أُعاني منه».

– سألتها بماذا تشعر عندما يُقبل بعض الناس يدها أو قدمها؟

قالت إنها لا تحب إطلاقًا أن يُقَبل أي أحد قدمها لأن في ذلك نوع من الخضوع، والخضوع أو الركوع لغير الله مذلة وهي لا تقبل ذلك لأي إنسان.

وأما تقبيل اليد قد يكون تقليد لعادة أوروبية حيث يُقَبل الرَجل يد المرأة إعجابًا، أو في بلادنا وخصوصًا في الأرياف تقبيل يد الأب أو الأم أو رجال الدِين نوع من الاحترام.

وقالت أنه أحيانًا يكون نوعًا من المرح مثل فؤاد المهندس أو أمين الهنيدي، وأحيانًا يكون محبة وتقدير من فنانين آخرين أو أشخاص من الجمهور.

وقالت أن أول مَرة رَجل يُقبل يدها كان في منزل أحد الباشاوات في القاهرة بعد أن غنت وكانت صغيرة، وما زالت تقيم في قريته طماي الزهايرة، وكانت مفاجأة لها وكان رد فعلها أن سحبت يدها بسرعة وقوة وكانت النتيجة أن ظفرها جرح وجه الرجل، وبعد ذلك قررت ألَّا تجرح شعور أو وجوه من يقبلون يدها.

وقالت أنها كانت دائمًا تقول سرًا أو علانيةً «أستغفر الله» كلما قبل أحد يدها.

– كنت أعلم أنها تحب الشِعر وتحفظ منه الكثير، فسألتها عن بيت شِعر فيه كلمات لها أكثر من معنى واحد فقالت: «باتت على الروض تسقني بصافيةٍ لا للسلاف ولا للورد رياها».

– سألتها عن بيت شِعر يعبر عن الصداقة قالت: «بعيد عنك ما استغنيت عني وطلاع عليك مع الخطوب».

– سألتها عن بيت شِعر يعبر عن الشوق قالت: «من كتر شوقي سبقت عمري وشفت بكرة والوقت بدري».

– سألتها بمناسبة كلمة عمري في البيت السابق هل تذكر بيت شِعر عن العمر أو السن؟

قالت: «وإيه يفيد الزمن مع اللي عاش في الخيال واللي في قلبه شجن أنعم عليه بالوصال».

– سألتها ما هي ملاحظاتها عن الفروق بين العادات هناك ومصر؟

قالت: «إنت فكرتني بالإمام الشيخ محمد عبده لمَّا زار أوروبا من زمان للدراسة ورجع مصر فقال رأيت في أوروبا إسلامًا بلا مسلمين وفي بلدنا مسلمين بلا إسلام».

– سألتها ماذا كان يقصد بذلك؟

قالت: «لا أستطيع التحدث عن قصده، بل أقول لك تفسيري أنا بناء على ما شاهدت، الأوروبيون يعملون بأخلاق الإسلام الكريمة في سلوكهم وأعمالهم ومعاملاتهم بينما كثير من المسلمين هُنا مع الأسف بعيدون عن أخلاق دينهم.

الناس هناك يحترمون بعضهم البعض ويتعاملون بأمانة وصدق، وهنا ينسون أنَّ الدِين المعاملة.

هناك يتحدثون بأصوات منخفضة هادئة وهُنا ينسون ما ذُكر في كتاب الله: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾.

هناك يمشون على الأرض هونًا وبتواضع وهُنا ينسون كلام الله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾.

هناك النظافة في كل مكان وهُنا ينسون أنَّ النظافة من الإيمان.

هناك يُعاملون الحيوانات برفق وعناية وهُنا ينسون أنَّ الرفق بالحيوان واجب وفريضة.

(المهاتما غاندي) قال أن حضارة الشعوب تقاس بكيفية معاملتهم لحيواناتهم. دليل على ذلك أنَّ أيام أجدادنا في الحضارة المصرية القديمة العريقة كانت الحيوانات تُعامل باحترام كبير.

وبرغم كل ده مصر عندي أجمل بلد في العالَم وشعبنا طيب وذكي وخفيف الدم، حاجات صغيرة ممكن تحليها أكثر لو كل واحد ياخد باله من الكلام ده، وكمان ينظف قدام بيته ويزرع ورد في بلكونته أو قدام البيت المية موجودة والشمس طالعة».

الشيء الذي سبب غضب السيدة أم كلثوم ذات مَرة هو أنني قبل أن أذهب لعمل حديث مع السيدة أم كلثوم لمجلة الحائط لجمعية أم كلثوم بهندسة عين شمس بيومين اشتريت مصيدة طيور التي يوضع فيها حبوب تجذب الطيور، ولمَّا يدخل فيها الطير يُغلق الباب عليه.

وفي يوم الزيارة كانت توجد يمامة في المصيدة، وعندما وصلت لمنزل أم كلثوم وقبل بدء الحديث قصصت ذلك عليها، وجهها تغير وظهر عليها الحزن وخلعت النظارة لمدة ثواني ثم لبستها وسكتت قليلًا ثم قالت:

«حرام عليك ليه عملت كده؟ بقى أنا أطعمهم و انت تصطادهم وتحبسهم، انت ناوي تعمل فيها إيه؟».

قلت لها أني أحب الطيور والحيوانات وكنت أقصد تربيتها في قفص كبير وقلت أني سألت البعض و أكدوا لي أن الصيد غير محرم.

قالت: «الواحد قبل ما يعمل أي حاجة لازم يفكر هل هذا العمل ممكن يسبب ضرر له أو لغيره من مخلوقات الله؟ هل إنت تعرف إذا كانت اليمامة دي ذكر أم أنثى؟ احتمال أنها أنثى ولها صغارها ينتظرونها، مَن سيرعاهم و أنت تحبسها؟

محدش في المدرسة علمكم حياة و أقوال المهاتما غاندي؟ إنت عارف إنه قال إن حضارة الشعوب تقاس بمعاملتهم للحيوانات والطيور، والرسول (ﷺ) قال أن رجلًا دخل الجَنة لأنه سقا كلب عطشان في الصحراء.

الرأفة بكل مخلوقات الله واجب ديني و إنساني، و أنا عاوزاك أول ما تروح بيتكم تطلق سراح هذه اليمامة وتكسر المصيدة وكلمني بكرة وقل لي عملت إيه».

ثم وقفت دليل على أنَّ الزيارة انتهت. وبالفعل لمَّا وصلت المنزل فتحت باب المصيدة وطارت اليمامة وكسرت المصيدة ورميتها في القمامة.

– سألتها هل هناك أي ملاحظات أخرى عن الفروق بين العادات في أوروبا ومصر؟

قالت: «شفت ناس كثيرة في الحدائق ومحطات الأتوبيس والمترو وفي المطارات في أيديهم كتب يقرؤونها وهنا برغم أن عندنا أدباء وشعراء ممتازين ومع ذلك عدد القراء قليل جدًا. وهذا مع أن أول ما نزل في القرآن الكريم ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ صدق الله العظيم».

– سألتها هل حضرتك بتردي على كل خطاب يصلك من المعجبين برغم إن معجبينك بالملايين؟

قالت: «في حدود الإمكان والوقت برد عليهم لكن الخطابات مش كتيرة زي ما تتصور، أنا بكون سعيدة لمَّا حد يكتب لي، الخطابات مش كتيرة لأن الناس الكسلانة في أن تقرأ كسلانة في أن تكتب وناس تانية تحب تكتب لي ويمكن بيفكروا إني علشان مشغولة مش هاقرأ خطاباتهم أو أرد عليها».

– قلت لها أن نشأتها الدينية في القرية لابد كان لها تأثير في المبادئ التي سارت عليها طول حياتها.

قالت: «حاجات كتيرة لكن أقول لك اللي على فكري دلوقتي:

– قال الرسول عليه الصلاة والسلام: (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه).

– وفي كتاب الله سبحانه وتعالى {يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ} صدق الله العظيم. خلي بالك من كلمة (يسارعون) الواحد مايعرفش العمر إمتى ينتهي.

– رأس الحكمة مخافة الله، اللي يخاف من الرب ميخافش من العبد.

– زي ما قلت لك قبل كده قبل فتح السِتارة أقول ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ صدق الله العظيم.

– وقبل أن أخرج من البيت أقرأ آية الكرسي.

– وفيه حديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام لا أذكر النص بالضبط لكن معناه أحسن الناس أنفعهم للناس.

عدم الحُكم على الآخرين لأن المظاهر خداعة والحُكم لله وحده، وإذا شخص قال لي قصة أو إشاعة فلازم أتأكد من صحتها مباشرة من الشخص المذكور في القصة لكي لا أظلم أي إنسان ربنا سبحانه وتعالى قال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ صدق الله العظيم».

– قلت لها أعمال حضرتك الخيرية كثيرة جدًا فمثلًا جزء من بيتك عملاه لأهل القرية طماي الزهايرة التي نشأتي فيها وذلك لعلاج مرضاهم وكذلك مساعدتهم في مصاريف التعليم والحياة، وكذلك أعطيتي الأرض التي تمتلكيها في القرية على أقاربك والفقراء.

قالت: «هذا هو الواجب والحقيقة أفضالهم عليّ أكثر مما أفعل لهم».

– قلت لها: «من زمان حفلاتك الخيرية في مصر والعالم العربي لا حصر لها، مثلًا لصالح فاقدي البصر (جمعية النور والأمل) ولضحايا حرب فلسطين (1948م) لرعاية مشوهي الحرب ومساعدة أبناء الشهداء، وتبرعاتك لصندوق الطلبة الفقراء بجامعة القاهرة وجامعات أخرى.

وعندما فزتي بجائزة الدولة التقديرية تبرعتي بها لصندوق معاشات زملائك الفنانين، وأيضًا مساعدة الشباب الضال (الأحداث) وأعمال خيرية أخرى لا تُعد ولا تُحصى تقومي بها في الخفاء».

قالت: «هذا من فضل الله، ولا ينفع الإنسان بعد انتهاء العمر غير العمل الصالح والذكرى الطيبة».

الله يرحمها كانت جزيلة العطاء وعلى خلق كريم.

– قلت لها أنني لاحظت من صور كثيرة تنشرها الجرائد والمجلات واضح فيها حبها للأطفال وحنانها عليهم وكذلك حبهم لها.

قالت: «الأطفال أحباب الله فيهم براءة وترى فيهم المستقبل».

– قلت لها هل كنتِ تحبين أن يكون لحضرتك ولد أو بنت؟

سكتت لمدة ثواني قليلة وشعرت أنا بالذنب والخجل أنني سألتها في هذا الموضوع الحساس ولاحظت هي ذلك.فنظرت في عيني وقالت:

«يعجبني فيك جرأة الشباب الواثق من نفسه، نادرًا ما يجرؤ أي أحد أن يسألني سؤال شخصي بدون لف ودوران.

نعم أنا كنت أحب أن يكون لي ولد أو بنت أو الاتنين، يعني ولد وبنت ولكن الظروف لم تسمح وليس كل ما يتمناه الإنسان يتحقق، والإنسان لابد أن يرضى بقضاء الله سبحانه وتعالى، ففي كتابه الكريم يقول {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} وكذلك يقول {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا}. صدق الله العظيم.

ومتنساش إن كل أغنية أغنيها بتكون زي طفلة بالنسبة لي أراعيها وأحاول أربيها في ذهني حتى تكبر وتحلو في أُذن ونظر جمهوري الذي أقدره وأحترمه بقدر حبه لي وزيادة».

– قلت لها من أكثر شخص أحبته في حياتها على الإطلاق؟

قالت: «أمي طبعًا ومتسألنيش مين بعدها».

– قلت لها أن الناس نوعين، نوع يأكل من أجل أن يعيش والأخر يعيش من أجل أن يأكل، وحضرتك... (لم تعطني فرصة أكمل) فقالت:

«أنا من النوع الأول».

– سألتها عن أحب الأكلات لها، فقالت:

«الجبنة القريش والجبنة البيضة والزيتون الأسود والسريس والفول المدمس والفواكه، والمهلبية يا سلام عليها بتفكرني بأول أجر لي كان طبق مهلبية و أنا طفلة مقابل الغناء مع والدي في قريتي، وكنت بكون فرحانة به جدًا، فأنا أحاول الابتعاد عن اللحوم والطعام الدسم».

قلت لها أنها بعد أن تغني أغنية جديدة في حفلة تغنيها بطريقة أجمل في الحفلات التالية، فسألتها هل غنت أغنية في حفلة ولم تغنيها مَرة أخرى ولماذا؟

قالت: « نعم وهذا حدث أكثر من مَرة لكن من زمن طويل، لأن تجاوب الجمهور مهم جدًا بالنسبة لي فإذا شعرت أن الجمهور لم يقابل الأغنية الجديدة بالحماس الذي تعودت عليه لا أُغنيها في حفلة أُخرى».

– سألتها هل تذكر اسم أغنية لقيت هذا المصير؟

قالت: «أغنية وقفت أودع حبيبي».

وأغنية وقفت أودع حبيبي كلمات أحمد رامي وتلحين فريد غصن.

وقفت أودع حبيبي والدمع حايرفي عيني
أكتم أساي ونحيبي خايف تبان له شجوني
أصعب عليه واشوف عينيه
فيها الأسى والحنين يخونني صوت الأنين
أقول له ع اللي ضنى حالي

لما خطر بعده ف بالي
بدي أملي العين منه من قبل ما أبعد عنه
حرمت روحي في عز نوحي
يشوف دموعي بتشكي له نار الأشواق
يسمع لساني بيحكي له وجد المشتاق
ودعته من غير ما اتكلم وفته الروح بتسلم
لما بعدت عنه قليل حبيت أشوفه قبل الرحيل
بصيت وراي أبكي هواي
لقيت خياله من بين دموعي عمال يغيب
والكون مر ايه فيها أساي
والشمس رايحة تبكي معاي وقت الغروب
صعبان عليها فراق الكون ساعة ما ودعت حبيبي
هي حزينة وقلبي حزين فايت من الدنيا نصيبي
يا طير يا ساري ساعة المغيب
راح تلاقي أنس وحبيب
تقابله بين الغصون والليل نسيمه عليل
وتزيد عليك الشجون تنعم بنجوى الخليل
تناغيه، تداويه و انت مهني
و انا روحي فيه ويبعد عني

– سألتها هل كانت نشأتها في القرية هو السبب في حبها للحيوانات؟

فقالت: «ربما ولكن السبب الأهم هو أن الرفق بالحيوان واجب ديني وإنساني، وفي الإسلام أقوال وموقف كثيرة تحثنا على ذلك، فالقرآن الكريم فيه سبع سور مسماه باسم حيوان أو طائر.

– سألتها هل تذكر أسامي هذه السور؟

فكانت نظرتها نظرة عتاب ثم قالت: «البقرة والأنعام والنحل والنمل والأنفال والعنكبوت والفيل» ثم أضافت: «وغير كده قصة أبي هريرة لمَّا نامت قطة في حجره وهو قاعد في مجلس بدلًا من أن يزعجها عندما أراد أن يقوم طلب مقص وقص جلبابه حولها. أنا مش فاكرة التفاصيل بالظبط.

وقصة أخرى للشخص الذي أعطى الماء التي كانت معه لكلب عطشان في الصحراء بدلًا من أن يشربها هو فقال الرسول عليه الصلاة والسلام عن هذا الشخص أن له الجنة بهذا العمل وتلك الرحمة.

وغير كده أمثال لا تعد ولا تحصى. وكذلك في الإنجيل والتوراة وحتى في العقائد الأخرى. أنا سبق أن قلت لك ما قاله المهاتما غاندي إن حضارة الشعوب تقاس بكيفية معاملتهم لحيواناتهم».

– سألتها إذا كان فيه أي حيوان لا تحبه بسبب شكله أو عاداته فقالت:

«أنا أحب كل أنواع الحيوانات والطيور والنباتات وكل ما خلق الله سبحانه وتعالى وأرى على الأقل شيء واحد جميل في كل واحد منهم.

أذكر قصة عن سيدنا عيسى عليه السلام. كان ماشي في طريقه مع الحواريين فرأوا كلب مشوه قبيح المنظر فتضاحك الحواريون وسخروا من قبح منظر الكلب فقال سيدنا عيسى عليه السلام لهم أن ينظروا إلى أسنانه البيضاء».

– سألتها: «حضرتك غنيتي في القدس عاصمة فلسطين سنة 1935م، هل تفكرين في الغناء هناك مَرة أخرى؟»

قالت: «أنا غنيت هناك أكثر من مَرة قبل النكبة والاحتلال الصهيوني».

– سألتها: «هل فعلًا أول من لقبك كوكب الشرق هي سيدة فلسطينية؟».

قالت: «نعم، وكان في أوائل الثلاثينيات في إحدى حفلاتي هناك وأذكر أنها كانت من غزة، صاحت بهذه الكلمات بعد أن انتهيت من الغناء وسمعها صحفي ونشرها، وبعد ذلك فتحوا قهوة في بيروت باسم كوكب الشرق ودعوني لزيارتها كلما كنت في بيروت».

قلت لها: «لي زملاء يهود في الكُلية بيحبوا أغاني حضرتك جدًا لكن بيقولوا انك بتكرهي اليهود».

قالت: «قول لهم أنني لا أكره أي أحد بسبب ديانته أو جنسيته أو أصله، الدِين المعاملة، الدِين اليهودي ديـــن سماوي إبراهيمي نسبـــة لسيدنا إبراهيم (عليه السلام) وهو أساس المسيحية والإســـلام.

ومن أوائل من لحنوا لي كان داود حسني وكان يهودي، ومن ضمن أصدقائي أُسرة ليلى مراد وهم يهود، ولي أصدقاء كتير يهود ومسيحيين.

أنا لمَّا كنت بتعالج في أمريكا طلبت مجموعة من اليهود المتدينين وكانوا لابسين اسود في اسود زيارتي في المستشفى، ومدير المستشفى كان قلقان ولكن أنا و افقت إني أشوفهم.

قالوا أنهم عرفوا عن وجودي هناك من الصحف وأرادوا أن يتمنوا لي الشفاء وأرادوا إبلاغي أنهم لا يحبون السياسة الاستعمارية الإسرائيلية ولا الأفكار الصهيونية وأنهم متعاطفين مع الشعب الفلسطيني.

المشكلة هي الصهيونية واحتلال أرض فلسطين. اليهود كانوا عايشين في سلام مع المسلمين والمسيحيين في مصر وفي فلسطين وفي معظم الدول العربية والإسلامية قبل سنة 1948م وحتى بعدما طردوهم من أسبانيا راحوا يعيشوا مع المسلمين في تركيا ودول عربية وإسلامية.

اللي بهدلهم وحرق كتير منهم في الحرب العالمية التانية ماكانوش مسلمين، دول كانوا هتلر والنازيين وكان إجرام لا يتقبله إنسان ذو

ضمير، لكن الصهاينة استغلوا عطف العالَم بعد ذلك واحتلوا فلسطين.

فيه فيلسوف بريطاني مش فاكرة اسمه دلوقتي قال إن دي أكبر سرقة في القرن العشرين، و أنا حاسة إن إسرائيل مهما طال الزمن هتدوب في بحر من العرب.

بمناسبة سؤالك أنا سمعت في الإذاعة البريطانية بي بي سي حديث مع جمال عبد الناصر وكان يرد على إنه بيكره اليهود قال لو الذين احتلوا فلسطين كانوا مسلمين من تركيا أو باكستان مثلًا كنا برضه هندافع عن حقوق الشعب الفلسطيني بنفس الروح ونفس العزيمة».

– سألتها إذا كان فيه دعاء تحب توجه لزملائي الفلسطينيين في الكُلية الذين فقدوا بيوتهم ووطنهم.فقالت:

«لا حول ولا قوة إلَّا بالله القوي العظيم، إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرًا منها».

***

لماذا لم تلحن أم كلثوم لنفسها؟

– قلت لها: «حضرتك معلوماتك الموسيقية كبيرة وتستطيعين أن تلعبي العود والقانون وآلات أخرى، متى وكيف تعلمتي هذا؟»

قالت: «من صغري و أنا محاطة بموسيقيين كبار اتعلمت منهم وعلمت نفسي وكان أولهم الشيخ أبو العلا محمد».

– قلت لها: «بالطبع ده أفادك في اختيار الألحان المناسبة للكلمات».

قالت: «بدون شك. لازم أو افق على اللحن وكثيرًا ما أطلب من الملحن تغيير جمل موسيقية».

– سألتها هل كانوا دائمًا يو افقوا؟

قالت: «في معظم الأوقات، لكن أحيانًا كان الملحن يقنعني إن هو ده أحسن من غيره أو يناسب صوتي في فترة معينة من عمري».

– سألتها هل فكرتي في تلحين أغاني لنفسك؟

قالت: «أنا جربت ولكن المثل يقول إدي العيش لخبازه، وفيه مثل إنجليزي بيقول إن الواحد لازم يعرف كل شيء عن شيء واحد ويعرف على الأقل شيء واحد عن كل شيء، و أنا أحب الإتقان في عملي وعملي هو الغناء».

– قلت لها أنه عُرض عليها مرات عديدة الإقامة في أوروبا أو أمريكا في مقابل أموال كبيرة وخيالية أو التدريب على الغناء بالانجليزية أو الفرنسية لينعم العالم الغربي ومعظم دول العالم بصوتك الر ائع الفريد من نوعه.

قالت: «أنا كفاية عليا ال 100 مليون في العالم العربي بالإضافة لمن يفهمون اللغة العربية في بلدان أخرى.(كان في وقتها تعداد العالم العربي 100 مليون)، و أنا لا أحب ولا أستطيع أن أعيش بعيدًا عن بلدي مصر وأرض مصر وجمهوري في مصر ولو قدموا لي كنوز سليمان».

– قلت لها إن فيه ناس بيقولوا إنهم عمرهم ما حبوا ولا وقعوا في غرام أحد، ماذا تقولين لهم؟

فقالت و ابتسامة على شفتيها: (يا قلبه اللي طول عمره ما داق الحب وحلاوته... تشوفه يضحك وفي قلبه الأنين والنوح... عايش بلا روح... وحيد... والحب هو الروح).

النقطة دي كتب فيها كاتب فرنسي معروف وهو من أصل روسي اسمه هنري تروياث، وكان قد أرسل لي خطاب ومعه كتاب من كتبه كهدية منه، قال إنه سمع صوتي ونوى ييجي مصر يحضر حفلة ويقابلني، و أنا بحاول أعلم نفسي شوية فرنساوي، كل صفحة أقرأها لازم القاموس يكون جنبي. وساعات رامي يساعدني الله يمسيه بالخير. الجملة اللي لفتت نظري في الكتاب وبترد على الموضوع ده هي:

Pour aime

Quelqu'un, on devrait

S'aimer moins lui– même

يعني الواحد علشان يقدر يحب شخص آخر لازم يفتح قلبه ويحب نفسه أقل شوية.

فيه ناس بتحب نفسها زيادة عن اللزوم ومفيش في قلوبهم مكان لأي حُب آخر».

– قلت لها عن ماذا كان الحديث بينها وبين المغني والممثل الفرنسي العالمي موريس شفاليه عندما زارها في منزلها في الخمسينيات؟

قالت: «الفرنساوي بتاعي كان بسيط جدًا ولكن حضر الزيارة الأستاذ رامي وهو يتقن الفرنسية، وكان موريس شفاليه بيوصل لي رسالة من الأكاديمية الفرنسية وتحية من أهل الفن والثقافة في فرنسا وكان عاوز يعرف كل حاجة عني.

و أنا كنت أسأله عن أغانيه و أفلامه التي شاهدت بعضها وعن كل حاجة عنه. كان زي سباق في الأسئلة مش فاكرة مين اللي كسب فينا، وتحدثنا عن الإعجاب المتبادل بين مصر وفرنسا منذ القرن الماضي وعن الحضارة المصرية و أقدم آلات موسيقية اخترعها قدماء المصرين وموجودة على رسومات بردية في المتاحف ومحفورة على جدار المعابد».

– قلت لها أنها برغم معرفتها بالإنجليزية والفرنسية تفضل وجود مترجم في أحاديث رسمية مع صحفيين أجانب وترد باللغة العربية.

قالت: «أولًا لكي يفهم كلامي جمهوري في العالم العربي. ثانيًا أحيانًا المترجم يُخطئ في الترجمة و أنا أحب الدقة في كل ما أعمل أو أقول وإذا حدث ذلك أرد مباشرة على الصحفي وبالعربي برضه».

أنا كنت لاحظت إن معظم حفلاتها للإذاعة في الخميس الأول من كل شهر التي حضرتها أنها لم تكن تصوير تليفزيوني وأنها كانت أجمل بكثير من الحفلات التي صورها التلفزيون، وكنت قرأت في جريدة الأهرام أو الأخبار أنها هي نفسها كانت ترفض أن يصورها التلفزيون. سألتها في ذلك.

قالت: «أنا لغتي هي الغناء و أنا أحب الراديو وأحب التفاعل مع الجمهور الحاضر أمامي في المسرح، بشعر أني بغني لكل واحد أو واحدة منهم. واللي بيسمعوا في الراديو بيسمعوا وخيالهم يسمح لهم يعيشوا قصص في حياتهم الأغنية تفكرهم بيها.

أضرب لك مثل. الأغنية زي الكِتاب، أنا أحب أقرأ كتاب وخيالي مفتوح لا حدود له وبعدين يعملوا فيلم من قصة الكتاب ده. ميعجبنش لأن الفيلم فيه قيود مثل خيال المخرج الذي يختلف عن خيالي وكذلك قيود مادية وقدرة الممثلين وعوامل أخري في عمل الفيلم تقلل من لذة أن تقرأ الكتاب.

وكمان لمَّا تكون الكاميرات بتصوروالأضواء تزداد ده بيأخذ من تركيزي و اندماجي مع الكلمات واللحن.

كثيرًا ما وجهت المسئولين عن التصوير أن لا يظهروا صور مقربة من وجهي، إنت عارف ليه بلبس نظارة سوداء و أنا بغني لا ألبسها. ومع ذلك في بعض التسجيلات المصورة لم يحترموا أو نسوا هذه التعليمات.

كمان أنا لمَّا بقوم من على الكرسي بعد المقدمة الموسيقية يصفق الجمهور ومن زمان المستمعين في الراديو لا يروني و إنما يفهموا أن هذا التصفيق يعني نهاية المقدمة وتقديرًا لها ولأعضاء الفرقة وللملحن و أيضًا لكي يستعدوا لبداية الغناء والصورة في التلفزيون بتضيع النقطة دي».

– سألتها هل فيه أي عادة منتشرة في مصر هي لا تحبها؟

فقالت بدون تردد: «التدخين عادة مضرة بالصحة ومكلفة، مضرة بصحة اللي بيدخن واللي حوله. في نظري إنه من الخطأ أن يصرف الشخص من دخله على التدخين، بينما فيه ناس مش لاقية تاكل.

لو كل مدخن في مصر يقلل من عدد السجاير اللي بيدخنها ويوزع ما يدخره من ذلك في أعمال خيرية زي مساعدة الفقراء والمحتاجين ربنا يبارك له في صحته ويزيد في ميزان حسناته».

– قلت لها لماذا لا تنصح بعدم التدخين تمامًا ومَرة واحدة؟

قالت: «لأن معظم المدخنين وصلوا لمرحلة الإدمان، فمن الصعب أن يتوقفوا مَرة واحدة إلَّا لو كان عندهم عزيمة وإرادة قوية أو يلجأوا لمساعدة طبية.

المشكلة هي إن فيه أطباء كثيرة مدمنين تدخين، هيكون زي المثل اللي بيقول جبتك يا عبد المعين تعيني لقيتك يا عبد المعين تتعان.

أنا بقول كده ولكن عندي أمل إن مع التوعية في المستقبل العادة دي تنقرض. لا أظن أن ذلك هيحصل في حياتي لكن يمكن في حياتكم إنت وزملائك».

– سألتها عن العوامل التي أدت لنجاحها وجعلتها أشهر مغنية في العالَم قالت لي:

"النجاح ده من فضل ربي والحمد لله، النطق السليم للكلمات يرجع لأني درست القرآن الكريم في القرية وأنا طفلة وتعلمت تجويده، ومن هنا يأتي الأداء الصحيح. كمان قضيت وقت طويل في بحث ودراسة تراث الموسيقى العربية زائد حبي للأدب والشعر.

وتجدني كثيرًا ما أبدل بعض الكلمات في الأشعار والقصائد والأغاني قبل ما أغنيها من أجل أن تتناسب مع شخصيتي والمبادئ التي تربيت عليها، وحفاظًا على ذوق جمهوري الذي أحترمه.

ويساعدني في ذلك كثيرًا الأستاذ أحمد رامي الله يمسيه بالخير، كمان بعمل بروفات كتيرة لمحاولة إتقان الأغنية قبل ما أسجلها على اسطوانة أو أغنيها في حفلة».

– قلت لها: «حضرتك مقلتيش حاجة عن صوتك كعامل من عوامل النجاح».

قالت لي: «قلت لك ده من فضل ربي. ده هبة من الله أنا بعمل الواجب اللي عليا وهو المحافظة على هذه الهبة، وإنت وزملائك بتدرسوه. لمَّا تخلصوا إنت قول لي رأيك العلمي إيه».

– قلت لها: «وماذا تفعلين للمحافظة على هذه الهبة؟ قالت لي:

«المشي كل يوم أو بقدر المستطاع وتدريبات للتنفس العميق لفترة يوميًا والمحافظة في الأكل وعدم التدخين والبعد عن المدخنين بقدر الإمكان، وأدفي نفسي في الشتاء علشان ميجيليش برد ودي أكتر حاجة بخاف منها في الأيام اللي قبل أي حفلة».

– قلت لها أنني سمعت أنها غالبًا ما تطلب من الملحن أن يعمل تغيرات في اللحن وهل هذا صحيح؟

قالت لي: «ده حقيقي وأحيانًا الملحن بيتعب معايا لكن في الآخر بيقتنع. الفكرة هي إن أنا اللي بغني الأغنية مش الملحن ولازم أكون أنا مقتنعة 100% بالكلمات واللحن».

– قلت لها أنني لاحظت ناس تحضر الحفلات وهم لا يتكلمون اللغة العربية من أندونيسيا وباكستان وإنجلترا وفرنسا وإيطاليا وبلاد أخرى قالت:

«أنا أنظر لكلمات الأغنية كأنها قصة وأمثل دور الشخصية الأساسية في هذه القصة وأضع في صوتي معاني الكلمات وأعيش الدور مش بس بالصوت ولكن بتعبيرات وشي وحركات إيدي وجسمي.

يمكن كتير من اللي يعرفوا عربي لا يلاحظوا ذلك لأنهم فاهمين الكلمات، لكن اللي ميعرفوش عربي بيفهوا المعنى الإجمالي».

– قلت لها أنني بالفعل لاحظت ذلك مثلًا في أغنية (دليلي احتار) صوتها زائد حركات جسمها وهي تغني الجزء (وقلبي من لقاك فرحان) يدل على الفرحة والبهجة ولما غنت (خيال البعد والحرمان) صوتها والموسيقى وتعبيرات وجهها وجسمها كان يوحي بالحزن والمرارة.

قالت لي: «ده هو اللي قصدي أقوله لك».

– سألتها ما هي أظرف نكتة أو قصة سمعتها؟

قالت أنها قرأت قصة حقيقية ظريفة أضحكتها كثيرًا، وهي أن امرأة أرسلت خطاب للكاتب الأيرلندي المشهور جورج برنارد شو

(George Bernard Shaw) قالت فيه أنها جميلة وتريد الزواج منه لتنجب أطفالًا في جمالها وفي ذكائه فرد عليها بخطاب شكرها فيه وقال أنه يخشى أن يتزوجها فينجبوا أولاد في ذكائها هي وفي جماله هو.

وللعلم أن كثير من الناس ينسبون هذا القصة التي أضحكت السيدة أم كلثوم لجورج برنارد شو وآخرون ينسبونها لأينشتين وآخرون ينسبونها للكاتب الفرنسي اناتول فرانس.

جورج برنارد شو أكد بنفسه أن ممثلة أجنبية أرسلت له هذا الخطاب وهذا كان رده.

***

هذه إضافة لحديثي عن السيدة أم كلثوم والغناء الأوبرالي الذي نشرته في إحدى حلقاتي الأُولى.

كان بنجامينو جيجلي (Benjamino Gigli) أشهر مغني تنور إيطالي بعد وفاة مغني التنور العالمي (كاروسو Caruso).

– سألتها إذا كانت سمعته وهو يغني وعن رأيها فيه فقالت:

«هو كان مدعو للاشتراك في عرض غنائي هنا في القاهرة في الأوبرا، وقبل العرض حضر حفلة لي في الأزبكية ودخل سلم عليّ ودعاني لحضور العرض الخاص به فذهبت أنا والأستاذ محمد القصبجي».

– سألتها إذا كانت تذكر أي شيء هو غناه فقالت:

«ضمن ما غنى كانت أجمل القطع الموسيقية التي أحبها وهي اسمها نيسون دورمة (Nessun Dorma) من ألحان الموسيقار (Puccini) من أوبرا تورا ندوت (Turandot).

بعد العرض هو طلب من مدير الأوبرا إنه يسلم عليا فدخلت أنا والقصبجي وهنأته على صوته والأداء، وقبل ما أخد بالي وضع يده على كتفي وهو نوع من التعبير عن الصداقة بطريقتهم ولكن أنا لم أسترح لذلك والقصبجي غضب وحاول يفهمه أن طباعنا لا تشجع ذلك ولكن اللغة لم تساعدنا وتدخل مدير الأوبرا و أفهمه».

قالت أنه حاول بعدها أن يقنعها أن تذهب لإيطاليا وتغني أوبرا معه.

– سألتها هل كانت هي أول مَرة فنان أجنبي كبير يعرض عليها ذلك؟ فقالت:

«لم تكن المَرة الأُولى ولا الأخيرة، فمن قبله بزمن حضر المخرج السينمائي العالمي سيسيل دي ميل (Cecil De Mil) لمصر من أجل أن يقنعني بالسفر للتمثيل والغناء في أفلام أوروبية وأمريكية».

سألتها عن رد فعلها، أعادت ما قالته لي من قبل وهو أنها يكفيها العالم العربي وأنها لم ترغب في الحياة خارج مصر حتى لو قدموا لها كنوز سليمان.

وقالت: «يقول الناس بلدي ولو جارت عليّ عزيزة وما بالك وبلدي مصر عمرها ما جارت عليّ بل بالعكس الحب والتقدير الذي ألقاه من الجمهور والشعب في مصر وسائر الدول العربية لا يُقدر بثمن، وآمل أن أستطيع أن أسعدهم كما يسعدونني لآخر يوم في عمري».

– كان من المعروف أنها درست وحفظت القرآن في الكُتاب في قرية طماي الزهايرة عندما كانت طفلة. سألتها ماذا كان تأثير ذلك على حياتها؟ قالت:

«القرآن له أفضال كثيرة على حياتي، المبادئ السليمة، احترام الوالدين (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة)، والتواضع (ولا تمشي في الأرض مرحًا فإنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولًا).

والاستمرار في عمل الخير والإسراع في عمله، والنطق السليم الواضح للألفاظ والحروف، وأشياء كثيرة».

– قلت لها أن زملائي في الكُلية طلبوا مني أن أسألها لماذا لا تغني أجزاء من القرآن بتلحين رياض السنباطي؟

نظرت لي نظرة ثاقبة لم أفهم معناها وإنما شعرت بشيء من القلق أن أكون قد أغضبتها، وقالت:

«أنا لا أُحبذ الكلام في هذا الموضوع، تلاوة القرآن تكفي ولها رهبة في النفوس، والموسيقى لن تزيد ولا داعي لها».

– سألتها مَن مِن المقرئين تُفضل سماعه وهو يتلو القرآن؟ قالت: «عندنا في مصر عدد من المقرئين الممتازين وأحبهم كلهم، كل واحد فيهم له صوت معين ونبرة معينة وطريقة مختلفة.

صوت وتلاوة الشيخ رفعت تعجني وتُدخل السكينة في قلبي، وأحب الأذان بصوته خصوصًا بعد مدفع الإفطار في رمضان وسورة الكهف بصوته تأخذني لعالَمٍ آخر، عالَم روحاني جميل».

– سألتها ماذا كان الفرق في إحساسها عندما كانت تغني في الاستديو لتسجيل أغنية جديدة وإحساسها عندما كنت تغني نفس الأغنية في حفلة أمام الجمهور؟

قالت: «زي الفرق بين واحد قاعد بياكل لوحده وواحد قاعد بياكل مع ناس بيحبهم ويحبوه، وساعتها يكون الأكل طعمه أحلى والنِفس مفتوحة».

– قلت لها أن لي زملاء في الجامعة يُفضلون سماعها في الحفلات وخصوصًا عندما تخرج عن اللحن أو ما يسمي الإرتجال، وآخرون

يفضلون سماع الاسطوانات أو أغاني الأفلام بدون هتاف وتصفيق الجماهير.

قالت: «أنا لا أحب حكاية الخروج عن اللحن وهقولك ليه بس انت قول لي الأول هل اللي بيحبوا الحفلات أكثر أم الجانب الآخر»، قلت لها أن الغالبية تفضل سماع الحفلات.فقالت:

«ردود فعل الجمهورتعطيني طاقة وتشجيع وكل ما أراهم سعداء أنا أشعر بالسعادة، ومتنساش إني بسمع نفسي زي أي واحد من الجمهور. ونرجع لحكاية ما يسمونه زملائك الخروج عن اللحن.

أنا لا أغني أي لحن جديد قبل أن أقتنع به و أتقنه وأعيش فيه، وأعتبر اللحن زي شارع جديد أحفظه من أوله لآخره واعرف كل حته فيه وكل بيت وكل طوبة وكل زاوية وكل ركن.

الناس اللي ماشيين أو ساكنين في الشارع ده هم جمهوري الذي أحبه وأحترمه. أبدأ أغني وكأني ماشية من أول الشارع ده والناس في الشارع والبلكونات مبسوطة وبعدين ألاحظ حَواري وأزقة متفرعة من الشارع ألاقي نفسي حودت عليهم أحيانًا بالقصد وأحيانًا بالصدفة أو الشغف، أو ألاقي نفسي منجذبة ليهم.

أخرج من الشارع الرئيسي وأدخلهم و أتصور الناس اللي فيهم منسجمين و أنا معاهم منسجمة كأني في عالم آخر، والناس اللي في الشارع و اقفين ورايا ومنسجمين كمان.

لكن بالطبع عيني على الشارع الرئيسي (اللحن) طول الوقت، وبعد لحظات قليلة أرجع له ولا ينقص من اللحن الأصلي أي شيء».

– كنت في صغري أسمع إشاعة أن أم كلثوم كانت تستحم باللبن في البانيو بدلًا من المياه لتحافظ على جسمها ومظهرها الذي كان منظر شباب دائمًا.

في ذات مَرة وأنا أُجري معها حديث للمجلة عن الدراسات في صوتها سألتها وبدون تفكير هل سمعت هذه الإشاعة وهل هي صحيحة ولا أدري كيف كانت لدي الجرأة أن أسألها في ذلك.

ضحكت السيدة أم كلثوم قليلًا ثم قالت:

«كل الإشاعات بتوصلني لكن معنديش وقت أرد على تفاهات زي دي. يا ابني الناس اللي بتطلع بأفكار زي كده دول ناس فاضيين وخيالهم واسع ومخهم مهلبية، وطبعًا الكلام ده غير صحيح واعتقد إنه حرام. اللبن نعمة من نعم الله. ناس كتير مش لاقيه اللبن علشان يطعموا أولادهم... أنا مش قصدي أزعل حد، أنا بحب المهلبية، وكانت أُجرتي وأنا طفلة في القرية لمَّا أغني في الأفراح طبق مهلبية... لكن الغريب إن فيه ناس بيصدقوا الكلام الفارغ ده وبيكرروه لغيرهم. إنت عارف إن الكدبة لمَّا تتكرر تبدأ الناس تصدقها حتى اللي اخترع الكدبة نفسه من كتر التكرار ينسى إنه ألفها ويصدقها هو كمان».

– لاحظت في الحفلات التي حضرتها أن عيون الأستاذ محمد عبده صالح كانت على القانون وفي نفس الوقت يراقب يد السيدة أم كلثوم اليمنى (اليمين).

وبإشارة من يدها أو من أصابعها يوجه هو باقي أفراد الفرقة الموسيقية للإعادة أو التبطيء أو تخفيض صوت الموسيقى أو

التوقف عن العزف أحيانًا عندما تشدو بآهاتها الجميلة. سألتها عن ذلك.

قالت: «هو فعلًا كده زي ما انت لاحظت، لكن مش هو بس ده كل أفراد الفرقة متعودين على ملاحظة يدي، والأستاذ عبده صالح بالإضافة لكونه عازف قانون قدير وممتاز هو معايا من سنين طويلة ويفهم حركاتي، إخلاصه لعمله ولي شخصيًا شيء أنا أعتز به».

– سألتها هل كان يُخطئ أحيانًا في فهم إشارات يدها أو أصابعها؟

قالت: «لأ هو مش كان بيغلط لكن كان ساعات يتآمر مع الجمهور».

– قلت لها أنني لم أفهم كيف يتآمر مع الجمهور ضدها؟

قالت: «يعني بعد ما أعيد كوبليه تلات أو أربع مرات وأكون مستعدة أغني الكوبليه اللي بعده ومنتظرة الفرقة تعزف والجمهور يصفق طالبين الإعادة مَرة أخرى هو يوقف الموسيقي بدون إشارة مني فأنظر له وأجد ابتسامته الطيبة وفيها رجاء كأنه بيقول (علشان خاطري) وساعتها طبعًا مقدرش أزعله أو أزعل الجمهور».

– سألتها عن شعورها وهي على القمة منذ سنوات طويلة فقالت:

«أنا لا أشعر أنني في القمة أنا فقط ماشية في الموكب، عندي أمال وأماني كتير وكبيرة ولن يتسع العمر مهما طال لتحقيقها».

– سألتها عن أي الأشياء تحبها فقالت:

«أُحب كل شيء له مستقبل، أُحب الزرع والشجر لأنه بيكبر ويخرج منه الورد والزهور والثمرات، أُحب الهلال لأنه بيكبر ويكون قمر وينور».

قلت لها أن ذلك ذكرني بأغنيتها الرائعة (هلت ليالي القمر) التي تقول فيها: (يصعب عليه تفوت لياليه من غير ما اشوف حسنك جنبي و ابات على الأيام أراعيه واشوفه يكبر مع حبي).

قالت: «ما هو إنت حافظ أهه، دي من كلمات الأستاذ أحمد رامي الله يمسيه بالخير».

– سألتها مَن هو الذي اكتشف موهبتها الغنائية؟

قالت: «والدتي ووالدي، و أيضًا علمني والدي أنَّ الغناء السليم مبني على التنفس السليم والصدر السليم، وكان يساعدني ويدربني لعمل تمرينات رياضية صعبة يوميًا لتقوية الصدر والرئتين وطبعًا كان يشجعني على النطق السليم كما تعلمته في الكُتاب (مدرسة القرية)».

– سألتها من هو أكثر شخص ساهم في حياتها الفنية ولأطول فترة زمنية؟

قالت: «كل مَن غنيت أشعارهم وكل من لحنوا لي ساهموا في حياتي الفنية، و أكثرهم هو صديق العمر الأستاذ أحمد رامي، تأثرت به وجعلني أتذوق الشِعر، وعندما لاحظ حبي في القراءة أخذ يستعير لي دواوين الشِعر من دار الكتب حيث كان يعمل.

كنت أقرأها وأعيدها إليه ثم يأتي لي بغيرها. قرأت دواوين شِعر المتنبي و ابن الرومي ومهيار الديلمي والبحتري وغيرهم. ثم بدأت أشتري كتب و أُكون مكتبة خاصة لي».

– سألتها ما هي أول كتب شِعر اشترتها لمكتبتها الخاصة؟

قالت: «الشوقيات (للشاعر أحمد شوقي) وديوان حافظ إبراهيم».

– كانت معلوماتي أنها غالبًا ما تقوم بتغيير وتعديل كلمات الأشعار والأغاني التي تغنيها، فسألتها إذا كان للأستاذ أحمد رامي دور في ذلك.

قالت: «أولًا التغييرات أنا أعملها لكي تتناسب مع صوتي وذوق الجمهور والزمن الحديث واللحن أيضًا، وكان رامي وما زال له دور كبير. دايمًا أستشيره وهو لا يبخل أبدًا في مساعدتي».

– قلت لها أنَّ الأستاذ أحمد رامي كانت كل أشعاره باللغة العربية الفصحى قبل أن يلتقي بها سنة 1924م بعد عودته من البعثة الدراسية في فرنسا. سألتها إن كان لها تأثير في تغيير اتجاهه للشعر بالعامية.

قالت: «إنت ممكن تسأله الأسبوع القادم في الندوة عندكم في الجامعة، وبالطبع إنت لاحظت إنه على درجة عالية من التواضع، هذا التواضع جعله ينزل قليلًا من عرش الشِعر ليتجاوب مع جمهور الغناء بجميع طبقاته بالزجل العامي فكان يمزج الشِعر بالزجل بطريقة جميلة ومنفردة وبأفكار جديدة».

– سألتها عن ما هو أكثر شيء أو أجمل هدية قدمها لها الأستاذ أحمد رامي ذات قيمة كبيرة؟

قالت: «وقته وهذا لا يُقدر بثمن. شوف كل حاجة إذا ضاعت لفترة ممكن تتصلح وتعود كما كانت ويمكن أحسن مثل المال والصحة ولكن الوقت هو من عمر الإنسان، والوقت من ذهب وممكن نفسرها إن الوقت ثمين وعندما يذهب لا يعود ولكن يبقى في الذاكرة، ولذلك أثمن هدية يهديها صديق لصديقه جزء من وقته».

***

أنا بدوري شكرتها على وقتها الذي قضته معي واختلط مع وقت من عمري وهو لي ماضي من العمر و آتي وكيف أنساه وقلبي لم يزل يسكن جنبي.

***

ملحق مصور

مع الرئيس جمال عبد الناصر

أنا وأم كلثوم

محمد عبده صالح أثناء العزف

مع الأستاذ أحمد رامي والدكتورة نعمات أحمد فؤاد

مع صالح جودت

جمعية أم كلثوم بهندسة عين شمس في رحلة سنة 1965

أحمد رامي و صالح جودت و نعمات أحمد فؤاد ومحمد عبدو صالح

مع نبيل عصمت

(ليس حب رجل لامرأة.. كان حب مثل حب الإغريق لآلهة الأوليمب..
أول رامي ما عرف أم كلثوم سنة ٢٤ وهو يحس نحوها بنوع من الغيرة
السامية.. نوع من الرغبة في الصيانة والحراسة)

صالح جودت

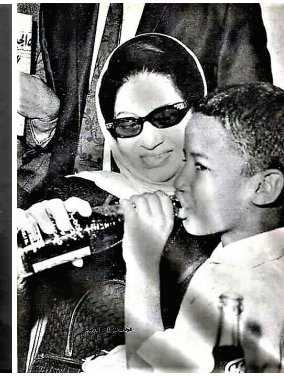

علاقة أم كلثوم (الإنسانة) بالأطفال

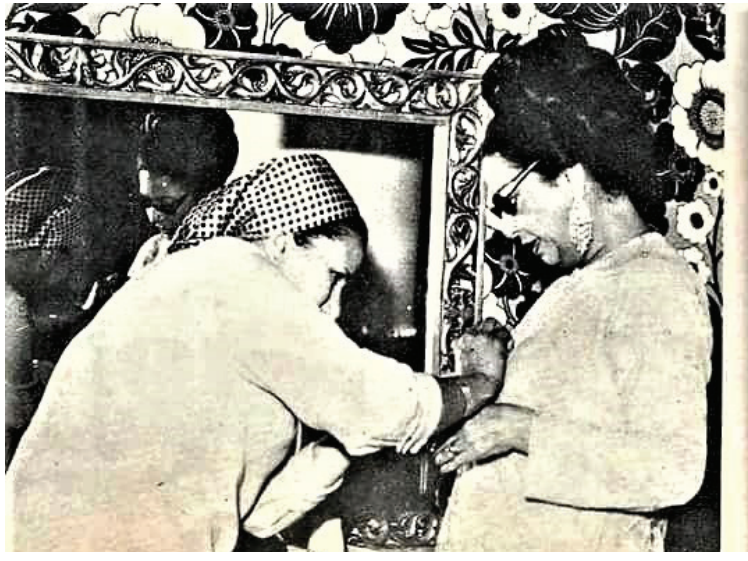

السيدة أم كلثوم مع وصيفتها الست إحسان

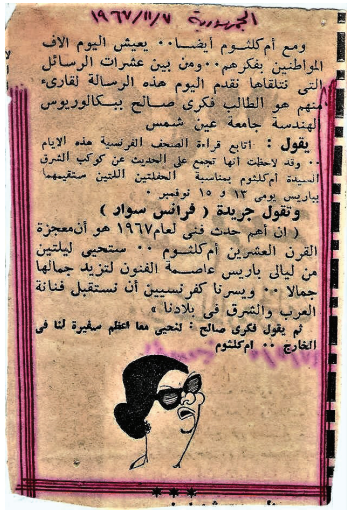

الجمهورية ١٩٦٧/١١/٧

ومع أم كلثوم أيضا .. يعيش اليوم الاف المواطنين بفكرهم .. ومن بين عشرات الرسائل التى نتلقاها نقدم اليوم هذه الرسالة لقارىء منهم هو الطالب فكرى صالح ببكالوريوس الهندسة جامعة عين شمس

يقول : اتابع قراءة الصحف الفرنسية هذه الايام .. وقد لاحظت أنها تجمع على الحديث عن كوكب الشرق السيدة أم كلثوم بمناسبة الحفلتين اللتين ستقيمهما بباريس يومى ١٢ و ١٥ نوفمبر .

وتقول جريدة (فرانس سوار)

(ان أهم حدث فنى لعام ١٩٦٧ هو أن معجزة القرن العشرين أم كلثوم .. ستحيى ليلتين من ليالى باريس عاصمة الفنون لتزيد جمالها جمالا .. ويسرنا كفرنسيين أن نستقبل فنانة العرب والشرق فى بلادنا »

ثم يقول فكرى صالح : لنحيى معا اعظم سفيرة لنا فى الخارج .. ام كلثوم

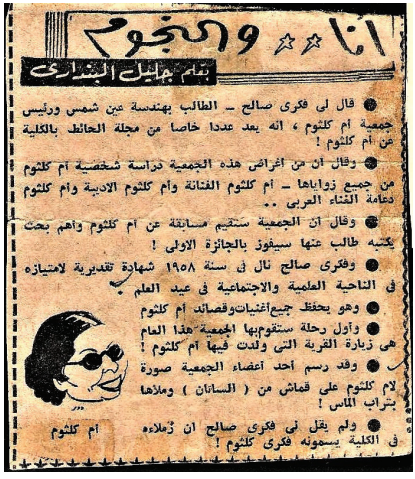

أنا والنجوم

بقلم جليل البندارى

● قال لى فكرى صالح ـ الطالب بهندسة عين شمس ورئيس جمعية أم كلثوم ، انه يعد عددا خاصا من مجلة الحائط بالكلية عن أم كلثوم !

● وقال ان من أغراض هذه الجمعية دراسة شخصية أم كلثوم من جميع زواياها ـ أم كلثوم الفنانة وأم كلثوم الادبية وأم كلثوم دعامة الغناء العربى ..

● وقال ان الجمعية ستقيم مسابقة عن أم كلثوم وأهم بحث يكتبه طالب عنها سيفوز بالجائزة الاولى !

● وفكرى صالح نال فى سنة ١٩٥٨ شهادة تقديرية لامتيازه فى الناحية العلمية والاجتماعية فى عيد العلم

● وهو يحفظ جميع اغنيات وقصائد أم كلثوم

● وأول رحلة ستقوم بها الجمعية هذا العام هى زيارة القرية التى ولدت فيها أم كلثوم !

● وقد رسم أحد أعضاء الجمعية صورة لأم كلثوم على قماش من (الساتان) وملأها بتراب الماس !

● ولم يقل لى فكرى صالح ان زملاءه فى الكلية يسمونه فكرى كلثوم !

أم كلثوم

مقال في جريدة الجمهورية

مقال في جريدة الأخبار

الأخبار الجمعة ١١/١٠/١٩٨٥

أخبار الناس

مصرى مهاجر إلى كندا يرشح لجائزة نوبل للعلوم

● المهندس المصرى فكرى صالح عثمان الذى هاجر الى كندا منذ سنوات ويعمل مديرا لابحاث الطب الهندسى بوزارة الصحة بكندا ...

يمثل كندا الآن فى مؤتمر عن الطب الهندسى يعقد فى شيكاغو بالولايات المتحدة الامريكية ويحضره علماء من جميع انحاء العالم قرر المؤتمر ترشيح فكرى لجائزة نوبل فى العلوم بالسويد فى العام القادم تقديرا لجهوده فى مجال الطب الهندسى لتطوير العلاج بالاجهزة الالكترونية والتخفيف من آلام مئات الالوف من المرضى فى العالم ..

مقال خبري في جريدة الأخبار عن ترشيحي لنوبل

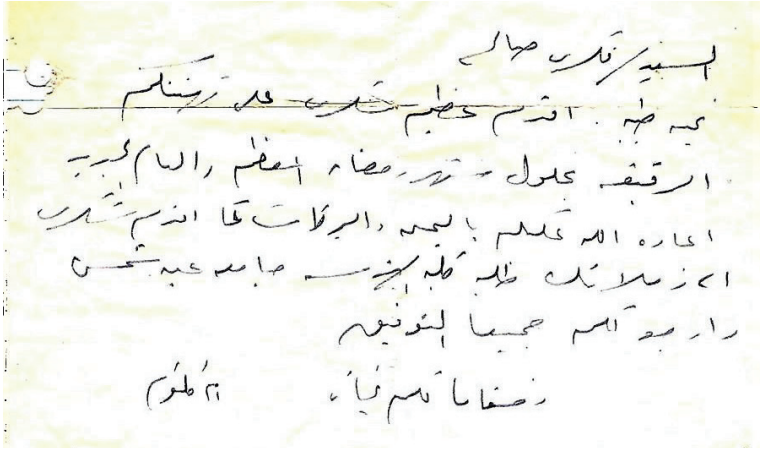

رسالة من أم كلثوم إلى المؤلف

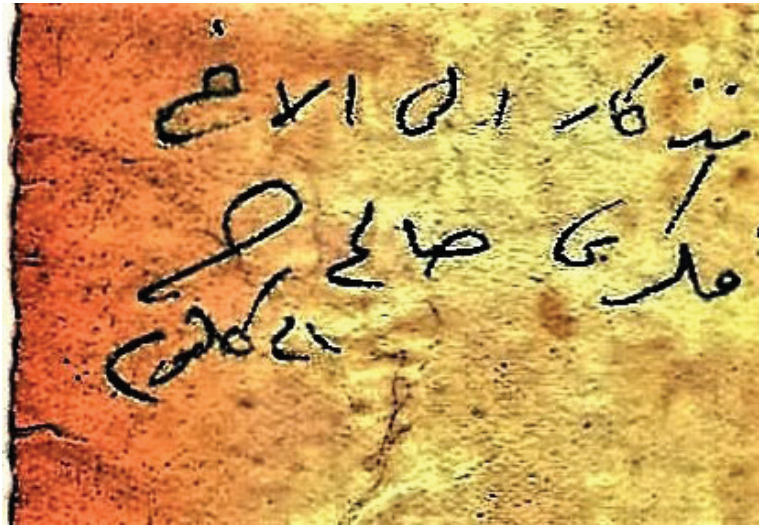

إهداء من أم كلثوم إلى المؤلف

فهرس الكتاب

قصة هذا الكتاب 7
السيدة أم كلثوم والأرملة والشاي على الكورنيش 8
أم كلثوم عن قرب 11
لغز الحنجرة الذهبية 13
لماذا كانت تجلس علي كرسي في بداية الحفلات؟ 18
أحب أغنيات أم كلثوم لنفسها 20
سر النظارة السوداء 22
طقوس حفلة الست 26
أحمد رامي صديق أم حبيب؟ 29
(أغدًا ألقاك) تداوي جرح النكسة 37
عبد الوهاب في الطابور وكرسي القصبجي الخالي 42
خفة دم الست 46
زواج أم كلثوم 50
قصة صورتي مع أم كلثوم 52
صعوبة الحصول على تذاكر لحفلات أم كلثوم! 55
كارت بوستال من كندا 58
مكالمة من أم كلثوم إلى والدتي! 59
لماذا هاجرت إلى كندا، وماذا قالته لي أم كلثوم عن ذلك 62
بعض أحاديثي مع أم كلثوم 66
لماذا لم تلحن أم كلثوم لنفسها؟ 85
ملحق مصور 103

كما نثق بكتابنا نثق بصوتك / هنا نصغي إليك!

الهالة للنشر والتوزيع
AL HALA PUBLISHING & DISTRIBUTION

تواصل معنا، ونحن نسمعك!
https://www.facebook.com/alhalapublishing
info@alhalapublishing.com